الأمير شكيب أرسلان



تحقيق

محمّد العبدة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م

دار الثقافة للجميع

دمشق. ص ب — ٥٠١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فقد كتب ((الأمير شكيب أرسلان)) هذه الصفحات وهي مقدمة لكتاب (النقد التحليلي) للأستاذ ((محمد أحمد الغمراوي)) ، وهذا الكتاب هو رد على آراء ((طه حسين)) التي ضمنها كتابه (في الشعر الجاهلي) .

والقضية لم تكن حول الشعر الجاهلي فقط ، بل كان وراءها ما وراءها ؛ فقد كان وراء هذا التشكيك الذي اتخذه ((طه حسين)) مذهباً ، مرمى آخر وهو نقض إجماعات أخرى لبقية العلوم ، وكان يؤزّ هذه الحملة من التشكيك المستشرق ((مرغليوث)) الذي كتب حول هذا الموضوع (الشعر الجاهلي) . وكُتبت يومها ردود كثيرة كان من أهمها ماكتبه ((مصطفى صادق الرافعي)) رحمه الله .

كانت المعركة بين دعاة التغريب ودعاة الأصالة . فإنه منذ أصيب العالم الإسلامي بصدمة التفوق الغربي وهو منقسم إلى من

يريد الاحتفاظ بالأصالة وأخذ المفيد من أي مكان ، وبين من أحدث هذا الأمر شللاً في تفكيره فكان عنده أنه لا بد من أخذ هذه الحضارة بعجرها وبجرها . يقول (مالك بن نبي) عن هؤلاء : ((وأدّى بهم مركب النقص إلى أن ولـوا مدبرين أمـام الزحف الثقافي الغربي ، وألقوا أسلحتهم في الميدان كأنهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيهـا الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب ، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزيّ بالزي الغربي)) (١) .

والمشكلة لاتزال قائمة ، ودعاة التغريب لايزالون يدعون إلى أخذ الدواء الوحيد ـ بزعمهم ـ من صيدلية الغير ، وكأن هـذا الاختيار لا مفر منه . ففي مقابلة مع الدكتور ((عبد الرحمن بدوي)) أجرتها إحدى المجلات الاسبوعية،أعاد الدكتور هذه القضية جذعاً، ودافع عن (طه حسين) والمستشرقين ، وهاجم من تصدى لهذه الموجة من المعاصرين أمثـال الأساتذة : ((محمود محمد شاكر)) و ((نجيب البهبيت)) و ((أنور الجندي)) .

إذن لا زلنا نعيش (الصراع الفكري) حيث نلاحظ أن الإعلام العالمي يضع دعاة الأصالة في الزاوية المظلمة من المسرح ، ويجري عليهم عملية التعتيم المناسبة .

---

(١) مالك بن نبي ، إنتاج المستشرقين ، ص ١٠ .

ويصور لنا الدكتور « زكي نجيب محمود » هذه الحالة وأنها لا تزال قائمة : « اختر حفنة من المفكرين العرب ، اخترها كما اتفق تجد فيها القديم الذي لايعرف عن الجديد حرفاً ، وفيهـا الجديد الذي لايعرف عن القديم حرفاً ، وفيها المستكين ، وفيها الثائر ، وفيها الداعية إلى غرب والداعية إلى شرق ، وفيها من كل صنف مما عرفت ومالم تعرف » (١) .

ومما يشجع أيضاً على نشر تراث الأمير شكيب أرسلان هو أنه أمير البيان ، وصاحب الأسلوب الجزل الذي يستسهل الوعورة، وصاحب الاستنتاج والتمحيص الذي يذكرنا بالطريقة الخلدونية في التاريخ . يقول في تعليقاته على (حاضر العالم الاسلامي) :

« وإنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكا بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسيا بعروتها وزرها ، وليس هناك كهانة ولا عرافة ولا هي مقاصد تدرك بالرقى والعيافة، ولكن يُعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الأول على الآخر » (٢) .

وناحية أخرى : هي أن المؤلف عندما يرد على المستشرقين ، فهو ليس من النـوع الذي يرد عليهم لأنهم مستشرقون ؛ بل نراه

---

(١) زكي نجيب محمود ، ثقافتنا في مواجهة العصر ، ص١٣٨ .

(٢) شكيب أرسلان ، تعليقات على حاضر العالم الإسلامي ، ج١ ، مقدمة الطبعة الأولى .

ينقل عنهم كثيراً في تعليقاته على (حاضر العالم الاسلامي) ، بل يردّ عليهم لأن عنده خبراً منهم ، فقد عاش أكثر حياته في أوربة واختلط بهم ، فوصف (مرغليوث) بأنه : ((من أخبث المستشرقين وأشدهم بغضاً لمحمد ﷺ)) .

كما أنه نبّه إلى ناحية مهمة : وهي (مركّب النقص) عند الشرقيين إزاء الغربيين ، وأن كل مايكتبه الغربي يصبح حقائق لاتقبل الجدل .

صحيح أنه كان هناك قسم ثالث حاول التغلب على (مركب النقص) بمحاولة الافتخار بالماضي فقط بدون أن يقدم شيئاً جديداً . فهؤلاء وإن كان لهم نصيب فيإخراج بعض التراث ، ولكنهم ليسوا من القسم الذي سميناه ب (دعاة الأصالة) الذين كانوا على علم بطبيعة المعركة ومن يديرها ، وكانوا في الوقت نفسه يعلمون بما عند الغرب من علوم يستفاد منها ، كما يعلمون أن شخصيتنا شخصية متميزة مستقلة لا تقبل الاستعارة من الآخرين . والعجيب أن يكتب أمثال (روجيه غارودي) عن (حوار الحضارات) ويدعو إلى دراسة الحضارة الاسلامية ، بينما لايزال أناس يخجلون من الانتماء لحضارتهم .

دمشق ١٢ ربيع الآخر ١٤٠٠ هـ

محمد العبدة

بسم الله الرحمن الرحيم

في أيام صباي قرأت قصيدة للشيخ « يوسف النبهاني » (١) امتدح بها السيد « أبا الهدى الصيادي » (٢) في أيـام السلطان « عبد الحميد » جاء فيها هذه الأبيات :

---

(١) هو يوسف بن اسماعيل بن يوسف النبهاني ، شـاعر ، أديب من رجال القضاء نسبته إلى نبهان من عرب البادية بفلسطين . تعلم بالأزهر ، عمل رئيساً لمحكمة الحقوق ببيروت ١٣٠٥ هـ وبقي فيها عشرين سنة . توفي في قريته (إجزم) التابعة لحيفا . له كتب كثيرة ، قال صاحب معجم الشيوخ : « خلط فيها الصالح بالطالح » . ومن كتبه : الأنوار المحمدية ، المجموعة النبهانية ، الفتح الكبير . . توفي عام ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢ م . انظر : الزركلي ، الأعلام ٢٨٩/٩ .

(٢) هـو محمدبن حسن من آل خزام الصيـادي الرفاعي الحسيني ولد في خان شيخون من أعمال المعرة ، تعلم بحلب وولي نقابة الأشراف فيهـا . ثم سكن الآستانة واتصـل بالسلطان عبد الحميد الثاني فقلده مشيخة المشايخ وكان من كبار ثقاته ، ولما خلع عبد الحميد نفي أبو الهدى ، وتوفي في منفاه . لـه معرفة بالأدب والتصوف صنف كتباً كثيرة (يقول الزركلي : أشك في نسبتها إليه) توفي في ١٣٢٨ هـ ـ ١٩٠٩ م . انظر : الزركلي ، الأعلام ٣٢٥/٦ .

ويمَّمتُ دار المُلْكِ أحسبُ أنَّها
إلى اليومِ لم تبرحْ إلى المجد سُلَّما
فألفيتها قد أقفرت من كرامها
ولم يبقَ فيها الفضل إلا توهُّما [1]
وألفيتُ مثلي أمَّةً عربيَّةً
يرى القوم منها أمَّةَ الزنج أكرما
وما نقموا منا بني العُرْب خلَّةً
سوى أنَّ خيرَ الخلق لم يكُ أعجما

فاستحسنت هذه الأبيات ، وطفقت أنشدها في مجالس بيروت معزوة بالصراحة إلى ناظمها الشيخ « يوسف النبهاني » الذي هو من أشعر شعراء العصر ، وكانت القصيدة مطبوعة منشورة وكانت معلقة ضمن إطار في دار « أبي الهدى » بالأستانة.

فاتفق بعد ذلك بقليل أن وقعت مناقشة تعرض فيها « سليم سركيس »[2] لي وحمل عليَّ وأخذ بالتشنيع في حقي ، ومن جملة

---

(١) ورد هذا البيت في كتاب (ما رأيت وما سمعت) لخير الدين الزركلي صفحة ٢٤ على النحو التالي :

فألفيتها قد أقفرت عرصاتها ولم يبق فيها المجد إلا توهما

(٢) سليم بن شاهين سركيس : صحافي من أهل بيروت ، تثقف في جريدة (لسان الحال) البيروتية ، أنشأ في مصر جريدة (المشير) ثم ذهب إلى أمريكا وأنشأ (البستان) ثم عاد إلى مصر وتوفي بالقاهرة عام ١٩٢٦ م . انظر : الزركلي ، الأعلام ٣/١٧٩ .

ما لجأ إليه لإلحاق الضرر بي ، أنه أخذ ينشر هذه الأبيات في جريدة كان يصدرها بمصر ويضعها تحت اسم الجريدة ويضع تحتها « الأمير شكيب أرسلان » ليوهم أنها من نظمي مع أنه كان يعرف جيداً أن هذه الأبيات ليست لي ولكنه كان يقصد إيقاعي في غضب الدولة •

وبقي « سليم سركيس » نحو سنة يُصدِّر جريدته بهذه الأبيات مذيَّلةً باسمي • ولم يصبني بسببها أدنى ضرر ولا أصاب الناظم الحقيقي ، بل كان يشغل منصباً عالياً في العدلية في بيروت ولم تكن الدولة تلتفت إلى أمور كهذه • على أني إظهاراً للحقيقة كنت نشرت واقعة الحال ، وأوضحت أن هذه الأبيات هي للشيخ « النبهاني » من قصيدة مشهورة مطبوعة ومنشورة ومعلقة في منزل الممدوح السيد « أبي الهدى » في دار السعادة •

ولكن تكرار نشر « سركيس » لهذه الأبيات بإمضائي وعدم اطلاع الكثيرين على ذلك البيان الذي نشرته خيَّلا لهم أن الأبيات هي فعلاً من نظمي ، وطالما صادفت أناساً كانوا يهنئونني عليها ويترنمون بها وكنت أقول لهم : وددت لو أني أبو عذرتها ، ولكن الحق أحق بأن يقال : وهو أن أباها هو الشيخ « يوسف النبهاني »

ثم كنت أنظر مرة في جريدة عربية صادرة في أمريكا الجنوبية ، فإذا بقصيدة حماسية تتعلق بحرب طرابلس الغرب منشورة في

تلك الجريدة موضوع تحتها « شكيب أرسلان » . والشطر الأول من هذه القصيدة فيما أتذكر :

الله أكبر سيف الحق مسلول .. .. ..

فدهشت لرؤية إمضائي تحتها لأنها قصيدة لم أكن أنا قائلها، وعذراء لم أكن ناجلها [1] . ونشرت في جريدة «البيان» بنيويورك تكذيباً لهذه النسبة ، لا حياءً بنظمها ولا تبرؤاً من تبعتها ، ولكن تقريراً للواقع .

وكانت لي في حرب طرابلس قصائد أخرى لكن هذه القصيدة لم تكن لي . والذي يظهر لي هو أن أديباً نظم هذه القصيدة ولم يضع امضاءه عليها فبقيت غفلاً . ولما كنت أنا قد شهدت جهاد طرابلس وبقيت نحو ثمانية أشهر في الجبل الأخضر مجاهداً بالسيف والقلم معاً [2] كما كانت تقول بعض الجرائد الإيطالية ، وكنت نظمت ونثرت عن تلك الحرب ، وسارت كلماتي عنها ، ظن بعض من اطّلع على تلك القصيدة وهي غُفل من الامضاء أنه لابد أن يكون ناظمها « شكيب أرسلان » لأنه هو الذي ينظم وينثر في ذلك الميدان ، وبناءً على هذا الظن وضع إمضائي عليها .

---

(١) قال القاموس في مادة « نَجَلَ » :
النَجْلُ : العمل . والناجِل : كريم النسل .

(٢) انظر ما سطر الأمير عن جهاده وجهاد أهل الجبل الأخضر ضد الاحتلال الايطالي ومجازر ومخازي هذا الاحتلال في صفحة ٦٦ ــ ٨٥ من تعليقاته على حاضر العالم الإسلامي الجزء الأول ط ١٩٧١ .

ثم إني كنت مرةً في جنيف أزور أحد الشرقيين فحانت مني التفاتة إلى مجلد مخطوط على منضدته ففتحته فوجدت فيه أبياتاً شعرية منتخبة من جملتها بيتان قيلا في هجو أحد أمراء الشرق ممن ليس اليوم على عرشه ، وفي هـذين البيتين بذاءة زائـدة وما راعني إلا أن رأيت اسمي تحتهما • فغضبت وقلت لصاحب المخطوط : من أنشدك هذين البيتين الساقطين ومن قال لك إنهما من نظمي ؟ فقال لي : لا أتذكر من قـال لي ذلك ، وإنما هكذا سمعت • فقلت له : أنا في حياتي كلها ما هجوت مخلوقاً ولا هجواً بسيطاً فكيف أنزل إلى قاذورات كهـذه ؟ وفي الحال ضربت على اسمي الموضوع هناك إفكاً وزوراً • والذي أظنه أن قائل هذين البيتين أراد أن يخفي اسمه حيـاءً بهما أو خشيةً مـن طائلتهما فألصقهما بي ، وتناقل ذلك بعضهم حتى خُيِّل أخيراً أنهما لي لأن الخلق جميعاً لايعلمون مشرب الشاعر ، ويكفي عندهم أن يقول الشعر حتى يصدقوا نسبة أيِّ شعرٍ إليه •

ونظير ذلك قصيدة أخرى نظمها شاعر لبناني درج منذ بضع عشرة سنة وهي تنال من أحد كبراء لبنان ، ولما كان الناظم الحقيقي قد أخفى اسمه أخذ الناس يرجمون في أمر قائلها ، فكنت أنا من جملة آبائها • والله يعلم وملائكته تشهد أني بريء منها ، بل إني كنت ساخطاً على نظمها وعلى شيوعها ، لأني أعُدُّ الهجاء من باب نضح الإناء بما فيه وتصوير الانسان لنفسه ، فالهاجي عندي هو المهجو بعينه ولو كان كلامه صحيحاً •

ومن هذا القبيل أماثيل كثيرة صادفتني في حياتي : منها نظم ومنها نثر ، ومنها نكات ومنها وقائع وأفعال فضلاً عن أحاديث وأقوال ، ولم يكن شيء من هذه لي ولا مني ، وإنما كانت نسبته إليَّ إما خطأً في الروايات وعدم تثبت في النقل ، أو عملاً بمجرد الظن والترجيح بدون عمد ، أو تدليساً وتزويراً من بعض الأعداء والحساد عن قصد وعمد إذا كان ثمة ما يرجون منه ضرراً .

ولا بد أن يكون ما حصل لي من هذا الباب حصل لكثيرين غيري ، وربما كانت قسمتهم فيه أوفر من قسمتي .

أفنقول بعد هذه المقدمة : إنه لما كان قد عُزِيَ إليَّ شعر لم أقله وذلك مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو عشراً ، وكانت قد وردت هذه النسبة في جرائد سيَّارة أو صحف منشَّرة ، لزم من هذا أن يكون شعري الذي يبلغ مئات من القصائد ، ونثري الذي يملأ ألوفاً وألوفاً من الصفحات ـ لأنه محصول قلم يتحرك منذ ٤٥ سنة ـ هـذا كله منحولاً لي ومصنوعاً عليّ وأني أنا لست بصاحبه ! [1] .

---

(١) جاء في كتاب : (عظماؤنا في التاريخ) للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله صفحة ٢٣٠ في ترجمة الأمير شكيب : « جاء في رسالة بعث بها الأمير إلى صديقه هاشم الأتاسي عام ١٩٣٥ أنه أحصى ما كتبه في ذلك العام فكان : ١٧٨١ رسالة خاصة و ١٧٦ مقالة في الجرائد و ١١٠٠ صفحة كتب طُبعت ، ثم قال : وهذا محصول قلمي في كل سنة » .

لانظن في الدنيا منطقياً ولا عاقلاً يقبل هـذا القول ، بل لا نعتقد أحداً ذا مسكة من عقل أو حصاة من ذكاء إلا راداً هذا القول بمجرد سماعه . فالحادثة والحادثتان والحوادث النادرة لايبنى عليها حكم عام أبداً .

وإذا اتفق لعمر بن الخطاب أن قال مرة لحسان : أرغاءً كرغاء البعير ؟ أيكون ذلك دليلاً على أن عمر منع الشعر ، وأن حساناً لم يكن ينشده ، ثم ينقض ذلك كل ما ورد من الروايات الأخرى البالغة حد التواتر من إنشاد عمر للشعر واستنشاده إياه وكون الرسول ﷺ قال :

« إن من البيان لسحراً ومن الشعر لحكمةً » (١) .

وإنه ﷺ وصحابته كانوا يروون الشعر ويهتزّون له ويرتاحون إلى سماعه كسائر العرب .

أما « طه حسين » فبحسب قياسه المعهود ومنطقه الذي مشى عليه في كتابه (عن الشعر الجاهلي) ، فجدير بأن ينكر صحة نسب شعري إليّ بأجمعه لعلة : أن « سليم سركيس » عزى إليّ أربعة أبيات هي من نظم « النبهاني » ، وأن جريدة عربية في أمريكا نشرت قصيدة عن حرب طرابلس نحلتني إياها وليس لي بها علم ،

---

(١) هذا الذي ذكره مؤلّف من حديثين . الأول : « إن من البيان لسحراً » رواه البخاري في كتاب الطب عن ابن عمر ، ومسلم في باب الجمعة ونصه : « إنه من البيان سحراً » . والثاني : « إن من الشعر حكمة » رواه البخاري في كتاب الأدب عن أبي بن كعب .

وأن مخطوطاً في جنيف تضمَّن بيتين وجد تحتهما اسمي ولم يكونا لي وهلمَّ جرا .

تقليد الأوربيين فيما ليس من علومهم :

وليس « طه حسين » في هذا الرأي الفائل[1] والمنطق المقلوب إلا مقلداً « لمرغليوث » [2] أو لغيره من الأوربيين بسائق عقيدة سخيفة فاشية ـ ويا للأسف ـ في الشرق وهي : أن الأوربي لا يخطىء أبداً ! وإنه من حيث اخترع الأوربي سكة الحديد والغواصة والطيارة والسيارة والتلغراف اللاسلكي وما أشبه ذلك ، فلا شك أنه صار يفهم « جيمية الشماخ » [3] و « لامية الشنفري » [4]

---

(١) الفائل : الضعيف . لسان العرب مادة (فيل) .

(٢) من أشهر أساتذة العربية المعاصرين في جامعة أكسفورد ، نشر معجم الأدباء لياقوت الحموي ، والأنساب للسمعاني ، تأثر به « طه حسين » وأخذ عنه . انظر : نجيب العقيقي ، المستشرقون ص ١٦٥ ، ط بيروت ، ١٩٣٧ م .

(٣) هو الشماخ بن ضرار الغطفاني ، أدرك الجاهلية والإسلام ، توفي في غزوة (موقان) زمن عثمان بن عفان . ومن جيميَّته :

وأشعث قد قدَّ السفار قميصه
يجر شواء بالعصا غير منضج

انظر : ديوان الشماخ ، صفحة ٥ ، طبعة ١٣٢٧ هـ . والإصابة لابن حجر ٣/٣٥٤ .

(٤) هو الشَّنْفَري عمرو بن مالك الأزدي . شاعر جاهلي من العدَّائين ، وهو صاحب « لاميّة العرب » التي مطلعها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل

الزركلي : الأعلام ٥/٢٥٨ .

أحسن مما يفهمها « سيبويه » و « الخليل بن أحمد » . وإنه لما كان قوله هو الفصل في الكيمياء والطبيعيات والطب والهندسة ... الخ ، لزم أن يكون قوله الفصل أيضاً في المفاضلة بين « الفرزدق » و « جرير » و « والأخطل » ! وليس في الدنيا خطأ أعظم من هذا ولا طيش يفوت[1] هذا الطيش ، فكل علم له أربابه الذين هم أدرى به . وإن راعي الضأن لأدرى من « أرسطاطاليس» في صنعته . ثم إن هذا الرأي يخالف على خط مستقيم مبدأ الإحصاء[2] الذي يعوّل عليه الأوربيون والذي يمنع الفوضى في العلم .

وبعد هذا فقد أولع الأوربيون بخصالٍ ، ولكن ولوعهم بها لا ينفي كونها خطأ،لاسيما أنّ الغربيّ وإنْ بذّ الشرقيّ في العلوم الماديّة فلم يبذّهُ في العلوم الأدبية ولا العقلية ، وإن المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين في الفلسفة والمنطق ، مقرّون بأن الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنية . وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول إن الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين بآداب

---

(١) يسبق . انظر في القاموس : مادة (فوت) .

(٢) أخص : تعلم علماً واحداً . القاموس مادة (خ ص ي) وهو يقصد التخصص .

الشرقيين ولغات الشرقيين. ولا يقدر أحد أن يدعي أن «مرغليوث» وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربي أكثر من علماء العرب أهل اللسان الذي نشؤوا فيه . وأن من أحمق الحمق أن يظن أن « مرغليوث » لكونه إفرنجياً صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلي الأصلي ، وأنه صار يظهر له فيهما ما يخفى على مثل « سيبويه » و « الخليل » و « الفرّاء » و « الأخفش » و « المبرد » و « ابن دريد » و « أبي علي الفارسي » و « ابن جني » و « الزمخشري » وأقرانهم ممن لا يحصيهم عدد ولا يحويهم بلد ، وهم جهابذة العربية وصيارف اللغة الذين يعرفون في لحظة صحيحها من بهرجها [1] وأصيلها من هجينها ، وإذا تليت عليهم القصيدة عرفوا من نسجها من أول بيت فيها وذلك لشدة مرانهم هذا الأمر ، ولكونهم وقفوا أنفسهم على خدمة هذه اللغة وأنفقوا جواهر أرواحهم من المهود إلى اللحود في تنقادها ، وأنهم قوم عاشوا بها وماتوا عليها ونخلوها وعجنوها وطبخوها وجعلوها قوتهم الدائم فامتزجت بلحمهم ودمهم وتمثلت فيهم ، وكادت كل جارحة من جوارحهم تنقل آثارها ، وكل شاعرةٍ من شواعرهم تحمل شعارها ، فكيف يقدر مستشرق أوربي ، نسبته إلى هؤلاء نسبة عربي تعلم الإنكليزي

---

(١) البَهْرَج : الباطل والرديء . انظر : القاموس مادة بهرج.

إلى « شكسبير » أن يدعي كونه فهم من لغة العرب ما لم يفهموه ، وانتبه فيها إلى ما غفلوا عنه ، وأنه عرف الدخيل من الأصيل وحقق أن الأصيل من شعر الجاهلية نزر لايكاد يذكر ، وأن الشعر الذي يقال إنه جاهلي والذي جمعه «المفضل الضبي» في مجموعه و «أبو تمام » في حماسته ، والمعلقات السبع التي حفظتها العرب من حاضرٍ وبادٍ وسار ذكرها في البلاد ، كل هذا مصنوع ملفّق مرتب بعد الإسلام،نظمه شعراء مولدون ونحلوه شعراء قالوا إنهم وجدوا في الجاهلية ، والحال إنه لم يتحقق وجودهم أو وجدوا ولم يقولوا هذا الشعر ! نعم خفي هذا عن فحول العربية المقرمين (١) وأنشدوا هذا الشعر على أنه « لعلقمة الفحل »و «لامرىءالقيس» و « للأعشى » و « النابغة » و « وعروة بن الورد » وهلم جرا ، وبنوا عليه النحو وضعوه والصرف الذي ابتدعوه والاشتقاق الذي لحظوه والمفردات التي جمعوها ، لابل بنوا عليه ذلك العروض وتلك الأوزان والأرجاز والحداء والغناء وكل شيء انفهق (٢) به فم عربي ، وكانوا في هذا كمن بنى على أصلٍ فاسد أو وقف على جرفٍ هار ، وهو لايعلم ما تحته !

---

(١) المقرم : صعب القياد والذي لايذلل . انظر : القاموس مادة (قرم) .

(٢) انفهق في كلامه : توسّع كأنه ملأ به فمه .

كلا لعمري إن أئمة العربية الذين لم يذكر التاريخ أن أمة خدمت لغتها ونصحت لسانها وحررت صرفها ونحوها بمقدار ماحرروا هم لغتهم وضبطوها وبوبوها ونقحوها وهذّبوها ، وعرفوا منها الصحيح من العليل والأصيل من الدخيل ، والمطبوع من المصنوع وأشاروا إلى ما ثبت أو ترجح أنه وضع بعد الجاهلية وأنه نحل غير قائله ، وهو بالقياس إلى الشعر الثابت لأهله أشبه بالثمد بالقياس إلى الغمر [1] ، فلم يدعوا رحمهم الله قيداً فالتاً ولا رعياً مهملاً ولا سقياً مبهرجاً ، وعلى فرض أنه غابت عنهم أشياء – لأن كمال العلم ليس من صفات البشر – فليس «مرغليوث» ولا مستشرقة الإفرنج هم الذين يقدرون أن يعقبوا على أئمة اللسان العربي وأن يصلحوا خطأهم لاسيما في المسائل اللغوية البحتة ، وليس للظالع أن يفوت شأو الضليع [2] ، وليست صفة كون هؤلاء المستشرقين إفرنجاً بالتي تضمن لهم العصمة عن الخطل والزينة لدى العطل [3] . إننا عرفنا كثيراً من هؤلاء المستشرقين بالذات وحادثناهم ونفضنا [4] ما عندهم ، ومنهم من يعد في الطبقة الأولى من هذا الجنس ، ولا

---

(١) الثَّمدْ : الماء القليل لامادة له . والغمر : الماء الكثير .

(٢) الظالع : المتهم والمائل والضليع من الضلاعة وهي القوة .

(٣) الخطل : الكلام الفاسد الكثير ، والعطل : المرأة ليس عليها حلي ، والرجل لاسلاح معه .

(٤) نفض المكان : إذا نظر جميع ما فيه حتى يعرفه .

ننكر ماعندهم من علوم واسعة وآراء صائبة ونظرات دقيقة ولمحات عامة وطرق في البحث جليلة ، وأن منهم مؤلفين عظاماً ومنقبين دهاةً ، ولكننا لا نتردد في القول إننا لم نجد منهم واحداً - إذا رجعت المسألة إلى العربية - نقدر أن نعدّه عالماً وأن نقرنه إلى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلاً عن الغابرين . وأتذكر أني لقيت أشهرهم وسمعت منهم الخطأ في العربي ، ولكننا نظراً لكونهم أجانب عن اللسان نرى قليلهم كثيراً ونغضي على ضعفهم بما يعجبنا من عنايتهم بلساننا وآدابنا ، وهم بعد هذا لهم طرق أخصر في الوصول ، وأساليب أقرب إلى النظام وملاحظات يساعدهم عليها تعمقهم في العلوم الاخرى ، كما أن معارفهم التاريخية على وجه الإجمال أوسع من معارف الشرقيين .

غرائب بعض الأوربيين :

ونعود إلى الخصال التي أولع بها الأوربيون وليسوا فيها على حق ، بل أصبحت عندهم أشبه بمرض أو هوس منها بعادة أو خصلة : وذلك أنهم يبالغون في القليل ويريدون أن يجدوا لكل حادثة أسباباً غريبة وعللاً لا تخطر على البال ، فيأتون من هذا النوع بالغثّ الذي يكاد يقيء له القارىء العليم من شدة نبوّه[1] وغرابته . ولا يزالون يُغربون في إيراد الأسباب ويتنوعون في

(١) نُبُوّه : قبح صورته .

التخرصات والتكهنات ماشاءت خيالاتهم وما طالت تصوراتهم ، حتى يظن الإنسان أحياناً أنه يقرأ أضغاث أحلام ، وحتى تبقى الألفاظ بدون معانٍ ، وكثيراً ما يرمي القارىء بالكتاب جانباً ويزهد في القراءة ويعدل عن النظر في ذلك الذي قد توجد فيه فوائد في جانب هاتيك السخافات (١) .

ويجوز أن يعلل فيلسوف مثل « Taine » على النمط الخلدوني ــ لكن مع زيادة في الإغراب ــ الحوادث التاريخية التي

---

(١) من أمثلة هاتيك السخافات كلام المستشرق (دوزي) الذي كتب عن تاريخ مسلمي أسبانيا . قال يحلل شخصية محمد ﷺ : « نظر أهل مكة إلى الأوس والخزرج نظرة فيها احتقار لأنهم زراع وكان محمد يشاطر بني جلدته نظرتهم . إلا أنه لما يئس من حمل أهل جنسه من التجار على اعتناق مبادئه اضطر لتناسي هذه النظرة ورحب بوفود عرب المدينة » !! انظر تاريخ مسلمي اسبانيا ٢٧/١

ومن الأمثلة على التخرصات والتكهنات ، ماذكره الاستاذ محمود محمد شاكر في كتابه عن المتنبي ١٢٢/١ من أن المستشرق بلاشير ذكر المتنبي ومدحه لبدر بن عمار . وهناك بدر الخرشني أمير دمشق من قبل الأخشيد محمد بن طفج فخلط بينهما . ثم يقول في دائرة المعارف الاسلامية :

« بدر الخرشني أمير يرجح أنه من أهل خرشنه ويعرف أحياناً بنسبة ربما كانت اسطورية وهي بدر بن عمار الأسدي » ؟!

وأما قياسهم المجتمعات الاسلامية والتاريخ الاسلامي على تاريخهم هم ومجتمعاتهم بما فيها من طبقات وتناحر فهذا شيء كثير .

وقعت في فرنسة ، ويبحث عن أصول فرنسة الحاضرة ويكون قد أصاب الغرض في كثير من أحكامه إن لم يكن في جميعها ، وذلك لتبحّره في تاريخ بلاده وإحاطته بأخبار قومه وإكناهه أسراراً اجتماعية قلما عرفها غيره • ويجوز أن جهبذاً آخر مثل « سنت بوف » Sainte - Beuve قد أوتي موهبة خاصة في نقد الرجال ، وترجم عدداً كبيراً من رجال أمته فرزق في هذا الموضوع حظّاً أيّده فيه من شدة التتبّع والاستقراء ما انضم إلى ماعنده من شفوف البصيرة وسداد حجة • ويليق أن كل من أتقن علماً أياً كان ذلك العلم أو أحاط واقعة أية كانت أ وقتل إحدى المسائل خُبْراً أن يعلل ماشاء عن مقدمات ذلك العلم ، أو أن يدعي ماشاء من معرفة أسباب تلك الواقعة أو أن يخوض في ملاحظات اجتماعية وروحية وسياسية واقتصادية كانت هي الأصل في ذلك الحادث ، ويجدر به أن يصيب المحزّ ويطبق المفصل في أكثر الأحيان إن لم يكن مطلقاً ، إلا أنه لايجوز أن يوصف بالإصابة ، بل لايجوز أن يؤخذ بالاعتبار مَن خلا ذهنه من مقدمات الموضوع الذي يريد أن يقتحم معركته ، أو كانت فيه أدواته ناقصة لايصح في العقل أن تبلغ به طائلاً • وإن المعلومات الناقصة لأشدّ تضليلاً وأسوأ عاقبة على المجتمع من الجهل المطبق •

والحال أن الافرنجي ــ ونرجو أن لايطالبنا القارىء بالأمثال فإنها مما لاتسعه المجلدات ، بل كل كتاب كتبه الافرنج عن الشرق

يصح أن يكون مثالاً بدون استثناء ـ لايكاد يصل علمه بحادثة أو حادثتين أو ثلاث حتى يجعل منها قاعدة ويبني على ذلك حكماً ويسجله إسجالاً ، ويرخي بعد ذلك عنان تصوراته حتى لاتعرف نفسك أفي منام أنت أم في يقظة • انظر إلى تآليفهم عن الشرق والشرقيين سواءً في السياحة أو في التاريخ أو في الجغرافية أو غير ذلك وتأمل مافيها ، وقارن بينه وبين الواقع الذي تعلمه أنت علم اليقين وتلمسه كل يوم بيدك وتنظره بعينك وتسمعه بأذنك ولا تقدر أن تكابر فيه إلا إذا كنت ممن يكابر في المحسوس ، وانظر البون الشاسع بين ما تقرأه من كلامهم وما هو بين يديك لتقضي العجب العجاب •

ليس فيمن يعرف لغة أوربية من الشرقيين إلا من قرأ كتباً ألفها الإفرنج عن سورية وعن مصر وعن بلاد العرب أو عن أمور متعلقة بالعرب وإن تآليفهم في هذه تعد بالمئات ، ونحن نكتفي بالتمثيل بها لأنها أقرب إليك وأجدر بأن تتمثل منها الحقيقة ، فيقدر أن يُقسم الانسان غير حانث أنه لايكاد يوجد منها كتاب إلا وهو مشحون خلطاً وخبطاً ، مهما يكن من رفعة قدر مؤلفه ومن شهرته في العلم • وإن الصحيح النادر منها هو الذي خَلْطُه قليلٌ بالقياس إلى غيره •

حتى إن « رينان » نفسه وهو من أكبر فلاسفتهم ومن أعلمهم بعلوم الشرق وبلغات الشرق وبفلسفة الشرق وقد زار بنفسه الشرق وأقام بسورية مدة من الزمن ، تجد له خلطاً عجيباً عن

الشرق وأحكاماً خيالية . وقد وجـد من ردّ عليه وأثبت خلطه ونشر ردّه باللغة الافرنسية ، ولكن شهرة « رينـان » العظيمة غطّت على تلك الفضائح . وإن من غريب التصادف أني بينما أنا أحرر هـذه الأسطر اطلعت « لرينان » على جملة واردة في كتابه « الأناجيل » يقول فيها ما يأتي أنقله بنصه :

« Ali, chez les Schiïtes, est devenu un personnage totalement mytologique. ses fils Hassan et Hossein sont des personnages reels , le mythe se greffe frequemment surune biographie historique » .

وترجمة ذلك :

إن « علياً » أصبح عند الشيعيين شخصاً أسطورياً تماماً ، أما ولـداه « الحسن والحسين » فإنهما شخصـان حقيقيان . فالأسطورة تلقح في الغالب على ترجمة حياة تاريخية .

لم نفهم ماذا يريد بقوله إن علياً صار شخصاً أسطورياً ، فإن كان مراده بذلـك أن الشيعـة عظموه وبجّلوه وقدّسوه حتى أخرجوه عن دائرة البشر ، فالجواب أن تعظيم الشيعة الإمامية لعلي لم يبلغ الدرجة التي وصفها « رينان » بل هو عندهم أفضل الصحابة وأشرف إنسان بعد الرسول ﷺ (١) . وهذا غير ما يقول « رينان » . ثم لنفرض جدلاً أن « علياً » أصبح عند الشيعة شخصاً خرافياً ، فما الفرق في ذلك بينه وبين « الحسن والحسين »

---

(١) بل غلوا فيه أكثر من هذا فجعلوه معصوماً هو وأولاده .

لأنه إن كان الغلو في شخص يجعله خرافياً فقد غلا الشيعة في أولاد علي كما غلوا في علي نفسه . والحال أن « رينان » يجعل بينهما فرقاً فيقول : إن الأب صار خرافة وإن الأولاد أشخاص حقيقيون. وهذا هو الخلط بعينه . وليس في الجملة شيء صحيح إلا قوله : إن الاسطورة تبنى على أساس ترجمة حياة تاريخية .

أفمن حيث قال « رينان » أن « علياً » صار عند الشيعة شخصاً أسطورياً ، وأن ابنيه « الحسن والحسين » شخصان حقيقيان ، وجب علينا أن نقبل هذا القول لأنه قاله « رينان » ؟

فاذا كان « رينان » وهو من العباقرة الأفذاذ الذين لم تنجب مثلهم أوربة إلا في الأعصر والقرون ، وممن درسوا علوم الشرق أكثر من كل أوربي آخر يخلط هذا الخلط ويخبص هذا الخبص، فما ظنك بمن ليس بعبقري وليس بفيلسوف ، ومن ليس نسيج وحده في قومه ، ومن ليس بواقف حق الوقوف على علوم الشرقيين ؟

ومن غريب التصادف أيضاً أنني بينما أحرر هذه السطور ، تناولت عدد أمس (٩ نوفمبر ١٩٢٨) من جريدة « الطان » وهي كبرى جرائد فرنسة كما لايخفى فوجدتها تقول في فصل عن الحزب الراديكالي :

Le groupe se tient, tire entré deux forces contraires, comme le tombeau de Mahomet dans l,espace, immobile .

ومعنــاه :

« يبقى الحزب تحت تجاذب قوتين متضادتين أشبه بقبر محمد ساكن في الفضاء » •

فمن قال ان قبر محمد ﷺ « ساكن في الفضاء » ! ومن ادعى ذلك من المسلمين ؟

ومرة قرأت في هذه الجريدة خبراً عن الحُجاج يقول فيه : « الذين يذهبون إلى مكة لزيارة قبر محمد » !

ولا عجب في ذلك فجميعهم لايفرقون بين مكة والمدينة • وإذا أردنا أن نحصي في أوربة الذين يعرفون أن قبر محمد ﷺ هو في المدينة لافي مكة فربما من الستمائة مليون نسمة الذين تأهل بهم أوربة يوجد ألف شخص •

وعندهم مثل سائر في معنى :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطع

وهو : « قال محمد للجبل تقدم فلما لم يتقدم تقدم إليه محمد » أنا أقرأ هذا المثل كل يوم تقريباً في كتاباتهم • فمتى جرى هذا وفي أي كتاب ورد من كتب المسلمين ؟

نعيد ماقدمناه إننا لانطمع في إيراد أمثال على هذه القضية قضية جهل الأوربيين بأمور الشرقيين لأن الانسان لايطمع أن يعدّ رمال الدهناء ولا حصى البطحاء ولا نجوم السماء •

وليس من العجيب أن يقع المؤرخ الافرنجي أو الكاتب السياسي أو السائح منهم في الخطأ عندما يتكلم على بلاد مرّ بها عابر سبيل أو أقام بها مدة من الزمن لم يتمكن فيها من كشف دخائلها أو قرأ عنها كتباً قاصرة ، وربما كان مؤلفوها من نمطه • ولكن العجيب الغريب هو زعم الكاتب الافرنجي إعطاءنا صورة تامة عن البلاد التي مرّ بها وهو لايعلم عنها إلا ماسمعه من دليل الفندق أو سائق العربة أو آخرين جمعته معهم التقادير ممن ليسوا في العير ولا في النفير • وترى الإفرنجي مع ذلك لاينظر إلى نزورة معلوماته في الموضوع الذي يطمع أن يحرره ولا إلى قلة بضاعته منه بل يهجم عليه هجوم من قتله علماً وبقره اطلاعاً ، وتراه لايروي خبراً إلا جعل له توجيهاً زعم أنه الواقع : مثل أن كاتباً شهيراً منهم جاء إلى طرابلس الغرب أيام الجهاد وكنت هناك فذكر « طبرق » في رسالة أرسل بها إلى مجلة « الايلوستراسيون » وقال إن بها قبيلة اسمها عائلة مريم — وهي من فروع قبيلة العبيدات — وإن هذا الاسم باقٍ عليها من أيام ماقبل الفتح الاسلامي أيام كان هؤلاء الأهالي هناك نصارى ! ولم يعلم أن هذه القبيلة عربية صرفة وأن تاريخ هجرة قبائل الجبل الأخضر من جزيرة العرب إلى « مصر » ثم إلى « برقة » معروف ، ولم يعلم أن المسلمين يسمون مريم • وهكذا أكثرهم عندما يكتبون عن الشرقيين يسترسلون إلى خيالاتهم ويجتزئون بمقدماتهم الضئيلة ويتسوّقون من ذلك

المتاع الساقط ويقدمونه لقرائهم على أنــه محكم النسج جدير بالاقتناء • وكثيراً مايطلقون على هذه الخزعبلات اسم « حقائق » فيسمي الواحــد منهم كتابه مثــلاً « الحقيقة عن سورية » أو « الحقيقة عن مصر » أو « الحقيقة عن مسألة كذا » ، ومن شاء فليقرأ جرائدهم ومجلاتهم وليقرأ مثلاً : « إن مصطفى كمال منع لبس الطربوش خلافاً للأوامر القرآنية » ومالنا وللشواهد وفي كل مطلع بريد يرد على الشرقيين رزم تنوء بها الجمال من جرائد أوربة ومجلاتها ، وفي كل منها من الأحاديث الغريبة عن الشرق والأحكام غير المعقولة على أحواله ما يكفي أن يأخذ منه الشرقيون أمثلة كافية مقنعة وحججاً راوية مشبعة بحيث ينتهون عن هــذا المرض : مرض تلقي أقوال الأوربيين قضايــا مسلّمة حتى فيمــا يهرفون فيه بدون معرفة ، ولقد عهدتُ كثيراً من الشرقيين الذين يحاكمون ويقارنون ويرون مافي روايــات الافرنج عنا من مخالفة الحقائق وأحياناً من مكابرة المحسوسات من لايملكون أنفسهم تارةً من الضحك وطوراً من البكاء لضياع الحقائق إلى هــذا الحــد •••

وقد يجاوب المكابرون : أفهذا الخلط خاص بالغربيين ، أفلم يكن الشرقيون ليخلطوا عند الكلام على الغربيين ؟ أفلم يعهد أن الشرقيين تسرعوا وتهوروا كما تهور بعض الافرنج ؟

والجواب أننا لاندعي كون الشرقيين أعلم مــن الغربيين وحاشا أن نقول هذا ، بل أولئك اليوم على وجه الاجمال أعلم منا

بلا جدال [1] ، ولكن المصيبة القاتلة هي أن الشرقي يتّهم أخاه الشرقي في نقله ويسفّهه في عقله ويحتقر رأيه ولا يقبل له قولاً لمجرد أنه شرقي ولا يضيع الوقت بزعمه في قراءة كتبه ، حتى إذا اطلع على تأليف أوروبي ولو محشواً بالهذيان ، تلقّى مافيه نازلاً من السماء وعضّ عليه بالنواجذ وأبى أن يرتاب فيه أو يحاكمه ، وإذا وجد ثمة أشياء تخالف المحسوس ابتغى وجوه التأويل كما يفعل العلماء بالكتب المقدسة ، وكما يقول الامام الغزالي فيما اذا تعارض العقل والنقل [2] . ولكن علماء الدين قد يتسامحون في التأويل ويجعلون الحكم النهائي للعقل ويطبقون الوحي عليه [3].

---

(١) لعلّه يعني بذلك أن الثقافة العامة منتشرة هنـــاك أكثر وكذلك انتشار طرائق ومنـــاهج للتعليم أفضل عدا عن تفوقهم في العلوم الماديـــة .

(٢) لايوجد تعارض بين العقـــل الصريح والنقل الصحيح ، والتعارض إنما يكون بسبب الالتباس في معانٍ وألفاظ عامة محدثة يظنها البعض أنها تعارض المنقول ، والشريعة أتت بالطرق العقلية والسمعية (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير) انظر : درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/٢٣٣ .

(٣) وأما وضع قانون للأصول من عند الناس وتطبيق الوحي عليه فهذا يشبه ماوضعه النصارى من أمانتهم التي جعلوها عقيدة إيمانهم وردوا نصوص التوراة والانجيل إليهـــا ، وهذه الأمانة هي التي اتفق رجال الدين المسيحيون عليها في مجمع نيقية عام ٣٢٥ م . المصدر السابق ١/٦ ، وانظر كتاب : المسيحية للدكتور أحمد سبكي صفحة ٨٨ .

وهذه الفئة الضالة من الشرقيين تأبى أن تناقش الغربي على شيء ، بل تقبل كل ما يقوله صبرة بلا كيل ولا وزن • ومن هنـــا نشأ ما نحن فيه من الأزمة الأدبية والاجتماعيـــة واللغوية والتخبُّط الذي ترانا تتخبَّطه ٬ لأن حقائقنا انقلبت ضلالات بلا ســؤال ، وضلالات الافرنج تـُلقـّيت حقائق بلا جدال • ويكفي القائل أن يكون [مسيو أو مستراً أو هرّاً أو سنيوراً] (١) حتى يكون قوله في كل مقام فصلاً • وهذا هو البلاء الأعظم ، لأن الافرنجي يخبط في الأمور الشرقية خبط عشواء، والشرقي يرى بعينه الحق ويغالط نفسه • بل الخطب أعظم من هذا وهو أن بعض الغربيين المنصفين المدققين إذا كتبوا عن الشرق اعترفوا بصعوبة مركبهم وحذروا القارىء من قبول كلامهم على عـــلاته ، ولكن القارىء الشرقي ــ إلا من رحم ربك ــ لا يعطيهم في رد شيء مما قالوه وكأنه يقول لهم : إن تحذيركم هذا إن هو إلا تواضع منكم ، وأما نحن فمن نحن حتى نجرؤ على تمحيص كلامكم ! • كان عندنا في جبل لبنان متصرف عاقل يقول لحاشيته : أنا لا أشاوركم حتى تقولوا لي : نعم ، نعم • وإنما أستشيركم حتى إذا غلطت تنبهونني إلى غلطي • وكان عنده مستشار مداهن «موالس»(٢) فقال له : ماذا نصنع إذا

---

(١) مترادفات في الإفرنسية والإنكليزية والألمانية والاسبانية لكلمة « سيد » في العربية .

(٢) الموالسة : المداهنة . انظر القاموس (ولس) .

كنت لاتغلط ! أنقول لك غلطت لأجل خاطرك ؟ لاتبلغ بنا الطاعة إلى هذا الحد . وهكذا نحن لانريد أن نقول للأوربيين : إنكم غلطتم ، ولو حذّرونا من تلقي جميع أقوالهم قضايا مسلّمة . فالأوربي عندنا فوق الغلط . وإذا غلط لزم التأويل . وكما أننا أخذنا عنهم الكيمياء والطبيعيات والهندسة والطب والاقتصاد والعلوم الاجتماعية فيجب أن نأخذ عنهم علم العربية ، وأن نقبل أحكامهم مسمَّطة على لغتنا وأدبنا وشعرنا وعلى تاريخ جاهليتنا وإسلامنا ، وأن نذعن لما يقوله بعض المستشرقين المتنطّعين الذين يجعلون الحادثة والحادثتين قاعدة ، وينسون أن القاعدة إنما هي مجموع الحوادث ، وأن في الفقه : (القديم يبقى على قدمه) ، ثم إن فيه (الضرر يزال ولو كان قديماً) وإن هذا لايعد تناقضاً لأن كل مقال منهما له مقام وأسباب خاصة به ولا يمنع ذلك من وجود القواعد الكلية . وأما هؤلاء المستشرقون المتنطعون – ولا يطلق هذا إلا على نزر منهم – فإذا عثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة [1] في زاوية كتاب قد يكون محرّفاً سقطوا عليها تهافت الذباب على الحلواء وجعلوها معياراً ومقياساً ، بل صيروها محكاً يعرضون عليها سائر الحوادث ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة واقتضاء الزمان والمكان .

(١) أي منفردة متنحية لوحدها .

ويرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع من الاصل ، هذا إذا لم يشب ذلك سوء قصد لأن الغربي لم يبرح عدواً للشرقي ورقيباً له ــ والنادر لا يُعتد به ــ ومن الغربيين من لم يتعلم العربية إلا على أمل أن يتتبع العورات ويحفظ المثالب ويتخذ من أعمالنا حجة علينا مثل الأب «لامنس اليسوعي» . ومثله الدكتور « هارتمان الالماني » وكلاً منهما قد عرفتُ . وكان « هارتمان » من أشهر المستشرقين ، ومع هذا قرأت له مرة فصلاً ينفي فيه بعض الأحاديث النبوية في حق الترك ، ولم يكن نفيه ذلك الحديث لنزوحه عن العقل أو لمعارضته لأحاديث أخرى أو لضعف في أسانيده ، بل زعم أن الحديث موضوع لأجل تكريم مقام النبي ﷺ ، وإلاَّ فالنبي قد يكون لم يسمع بذكر الترك ! فالمستشرق الشهير الذي يظن أن النبي ﷺ لم يسمع بذكر الترك ولقد كان أقلُّ بدوي جاهلي يسمع بهم لا يكون بدون شك إلا جاهلاً أو متجاهلاً . ومثل هؤلاء لا ينبغي أن يسمع كلامهم في تاريخ العرب والعربية فضلاً عن أن يؤخذ به حجة .

الشعر الجاهلي والاسلام :

ولينظر القارىء في الأسباب التي زعمها بعضهم لتزوير شعر على لسان شعراء الجاهلية لم تقله شعراء الجاهلية . فقد قالوا : إن الاسلام أراد أن يطمس كل ما تقدمه ، وأن يمحو كل أثر للأديان السابقة كالوثنية واليهودية والنصرانية والصابئة ، فرفع

من بين العرب بعد الاسلام الشعر الجاهلي الحقيقي وتبدّل به شعراً مصنوعاً مقلداً به نسق الجاهلية كما يزوّر بعض الناس قطع العاديّات ويبيعونها على أنها وجدت في أثناء الحفر تحت الأرض وهي في الحقيقة جديد في هيأة قديم • إنه لم يقل هذا القول كثير من الأوربيين ، بل الجمهور من مؤرخيهم على أن شعر الجاهلية هو شعر الجاهلية ، ولكن قاله بعضهم وتابعهم على ذلك نزر" مِنَّا حباً بالشهرة وغراماً بالمخالفة • وقد يكون هناك غرض أو مرض لأنه مما لامشاحة فيه أن العالم الاسلامي يجتاز أزمة اجتماعية شديدة تتجلى أعراضها تارة في الدين ، وتارة في اللغة ، وتارة في الزي ، وتارة في السياسة ، وهلم جرا •

لا مصلحة للإسلام في تعفية آثار ما سبقه :

والجواب على هذا الزعم يطول جداً إلا أنه يتلخص في الأمور الآتية :

الأول : ليس بضروري لإعلاء كلمة الاسلام أن يلتزم المسلمون تعفية كل أثر من آثار الديانات التي سبقته وأن لا يُبقي لها ذكراً ولا عنها خبراً ؛ بل مما يزيد في بيان فضل الإسلام وإظهار طَوْلِهِ وقوته ، أن يعلم الناس أن قد سبقته أديان عريقة وملل طويلة عريضة عميقة ، وأنه جاء هو ضعيفاً فما زال يقوى ويتمكن بحول الله حتى اقتلع تلك الأديان من جذورها ولم يبق لها أثراً في جزيرة العرب • ولعمري إن حفظ ذكرى هاتيك الأديان كان ضرورياً لتبيين الفرق بين الحالة السابقة والحالة اللاحقة ،

وليعلم الناظر المتأمل كيف نقل الاسلام العرب من عبادة الشجر والحجر وأصنام العجين إلى عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلا هو، ومن وأد البنات إلى الرحمة ، ومن البغاء إلى العفة ، إلى غير ذلك مما كانوا فيه وصاروا إلى عكسه • وحسبك أنهم كانوا منحصرين في فيافي الجزيرة ، وأنهم لم يكن لهم ملك ولا سلطان وكانت تغزوهم الأعاجم في عقر دارهم وكانت الأحابيش تقتل رجالهم وتستبيح نساءهم في وسط بلادهم فجاء الإسلام وملكهم أعظم أقطار العالم ومكنهم من نواصي الأمم ، فمن الضروري للبرهان على عظمة ما صنع الإسلام من خير للعرب تذكيرهم بالبيئة السابقة الذليلة ، كما أن تراجم الفاتحين الكبار (كقيصر والاسكندر ومحمد الفاتح وصلاح الدين ونابليون) وكل الغزاة المشهورين لاتتم ولا يظهر بهاؤها ولا يعرف فضل الذين تحدث عنهم إلا بذكر الملوك والأمم التي قهرها أولئك الفاتحون وبضدها تتبين الاشياء • ويا ليت شعري هل يخسر الإسلام أم يكسب إذا قيل إن العرب في الجاهلية كان منهم قبيلة تعبد صنماً من عجين فلما أصابتها مجاعة أكلته وقال الشاعر في ذلك شعراً ، أيطمس الإسلام شعراً يستدل به على مقدار فضله ؟ إن ذلك لغير معقول •

القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة وأخبارها :

الثاني : كيف يكون الإسلام تعمّد طمس ذكر الأديان السابقة على حين أن القرآن المجيد الذي هو مشرق الإسلام وينبوع الإيمان ملآن بذكر هذه الأديان السابقة وأخبارها وسيرها

ريّان بتعظيم أنبيائها وتكفير من خالفهم ، وهو لا يفتأ يخاطب بني إسرائيل ويذكر : (نوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى الى عيسى بن مريم) ، وهناك التعظيم الأعظم ، وهناك كلمة الله ألقاها إلى مريم، وهناك ذكر الحواريين، وهناك ذكر الرهبان والقسيسين.

وماذا يريد الإنسان من إحياء ذكرى هؤلاء الأنبياء أكثر مما ورد في القرآن الكريم ، بل القرآن لا يجعل الإسلام ديناً جديداً ولا ملة مستأنفة بل يجعله ملة إبراهيم حنيفاً انحرف الناس إلى ترهات ضلال فجاء يردهم منها إلى المحجة وطال الأمد عليهم فقست قلوبهم فجاء يجدد فيهم بشاشة الإيمان ويرقرق ماء الحياء . وكما يؤيد القرآن التوراة يؤيد الإنجيل ويقول إنه لم ينزل على قلب محمد ﷺ إلا تصديقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل . والحاصل لا يكاد الانسان يجد في العربي على سعة بحره كلاماً يكيل به مقدار حماقة أولئك القائلين إن الاسلام زوّرَ على شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه ورفع من بين أيدي الناس الشعر الذي قالوه وذلك ليمحو ذكر كل ملة جاءت قبله وأثر كل عقيدة سبقته !

عندما يكون القرآن شمس الإسلام من أوله إلى آخره لا تكاد تخلو منه صفحة من أذكار هاتيك الملل والنحل ، لا بل من أخبار الوثنية نفسها التي ذكر القرآن أصنامها كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وغيرها من الأصنام .

ما بأيدينا من الشعر الجاهلي خليق بعصره :

الثالث : يقول هؤلاء السخفاء أن أولياء أمر الإسلام إنما أرادوا ليطمسوا شعر الجاهلية الأصلي تأييداً للإسلام وإخناء على كل شيء خالفه ، وأنهم صنعوا على ألسن شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه وذلك بعد البعثة بقرون ! والحال أننا لا نرى هذا الشعر المصنوع الذي يقولون عنه مؤيداً الإسلام في شيء ، أفتراهم محوا شيئاً ثم عملوا عنه نسخة أخرى طبق الأصل ؟ فما فائدة هذا العمل إذاً وهو العمل الذي ارتكب له التزوير الذي لا يعدل إثمه شيء . إننا نرى الشعر المنسوب إلى الجاهلية الذي بين أيدينا تتدارسه شعراً خليقاً بالجاهلية تؤخذ منه جميع أوضاع الجاهلية ، ونرى أولئك الشعراء مشركين ويهوداً ونصارى وكل فئة شعرها تشتمّ منه رائحة دينها . وقد نقل المسلمون أشعارهم كما هي بحذافيرها لم يسقطوا منها شيئاً ولم يخرموا حرفاً ، وأقرأوا ذلك في مساجدهم ورووا أشعار اليهود وقالوا إنهم يهود ، لا بل لم يبلغ شعر من الشهرة ما بلغته قصيدة « السموأل » اليهودي ، ورووا شعر « أمية بن أبي الصلت » و « الأخطل » و « العبادي » و « القطامي » وغيرهم من شعراء النصارى وقالوا : إنهم نصارى . وروى النبي ﷺ كلام « قس بن ساعدة » أسقف نجران ، ونقل علماء الإسلام خبر وفد « نجران » على الرسول وعلى رأسهم

أسقفهم « أبو الحارث بن علقمة ابن ربيعة »[1] . ورووا افتخار « الأخطل » بنصرانيته وبامتناعه عن الإسلام عندما قال :

ولستُ بصائمٍ رمضان عمري ... ولست بآكلٍ لحم الأضاحي
ولست بقائلٍ ماعشتُ يوماً ... قبيل الصبح حيَّ على الفلاح

ورووا كيف تنصر « النعمان بن المنذر » في قصة مآلها أن النعمان أراد قتل « حنظلة الطائيّ » فاستأذنه حنظلة أن يذهب ويودع أهله فأذن له النعمان على شرط أن يقدم كفيلاً ، وأنه إن لم يرجع قتل النعمان الكفيل،فلما كاد ينقضي الميعاد همّ النعمان بقتل الكفيل وبينما هو يريد أن يفعل إذ رأى غباراً من بعيد فانتظر فإذا حنظلة مقبل يشتد في السير حتى يصل ضمن الميعاد ولا يقتل كفيله ، فلما وصل قال له النعمان : ما حملك على هذا الاهتمام في الوصول قبل انقضاء الموعد وأنت تعلم أنك آتٍ إلى القتل ؟ قال له الرجل : حملني على ذلك الوفاء . فقال النعمان : وما السبب في شدة وفائك هذا ؟ قال له : ديني فقال له النعمان : وما دينك ؟ قال الرجل : النصرانية . فتنصر النعمان . هذه الرواية وغيرها من مفاخر النصرانية رواها المسلمون قبل النصارى ولم تتحرج صدورهم بها لأنهم كانوا ينصحون في الرواية ويتحرون في النقل إلى الدرجة القصوى حتى أنهم نقلوا كل ما قيل من شتم الرسول

---

(1) انظر قصة وفد نجران في : السيرة النبوية لابن كثير . تحقيق مصطفى عبد الواحد ــ ١٠٦/٤ . والمقريزي : إمتاع الأسماع ص ٥٠٢ .

ﷺ كما نقل الحواريون كل ما قيل من شتم عيسى ﷺ • وروى رواة الإسلام كيف كان « كعب بن الأشرف » اليهودي يهجو النبي ويؤذيه ، ورووا جميع أخبار يهود « قريظة والنضير وفدك وخيبر » وأنشدوا الأهاجي التي قيلت في رسول الله وأصحابه ومنها :

لعبت هاشم بالدين وما نبأٌ جاء ولا وحيٌ نَزَلْ
ليت أصحابي ببدرٍ علموا جزع الخزرج من وقع الأسلْ(١)

وأوردوا الشبهات التي كان أعداء الإسلام يوردونها على الإسلام ، فتجد كتب السير مشحونةً بتلك الأقوال التي يدل استقصاء المسلمين شواردها على أن قضية الحذف والطمس التي يتشدق بها بعض المستشرقين ومن تابعهم من مرضى القلوب من الشرقيين لم يكن المسلمون منها في ورد ولا صدر • وقد روى المسلمون شعر « عدي بن زيد » الذي كان نصرانياً وقال عنه « أبو عبيدة » : هو في الشعراء « كسهيل » في النجوم يعارضها ولا يجري مجراها • ورووا شعر « المتلمس » النصراني وشعر « البراق بن رواحة التميمي » وشعر « بسطام الشيباني » وشعر « حنين الحيري » وشعر « القطامي » وكل هؤلاء كانوا نصارى

---

(١) من شعر لابن الزِّبَعْري قاله بعد أحد يهجو المسلمين ، ولكن ابن هشام لم يورد البيت الأول والبيت الثاني ، وأرد :

ليت أشياخي ببدر ... انظر : الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام ، ١٠٤/٦ .

معروفين . أما « الأخطل » فسئل عنه « حماد الراوية » فقال ما تسألونني عن رجل حبب شعرهُ إلى النصرانية . ولما امتدح بني أمية قال له الخليفة : يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ قال : إني أكتفي بقول أمير المؤمنين . وكذلك روى المسلمون كيف ان « السيد والعاقب » من أساقفة « نجران » وفدا على النبي ﷺ وجادلاه . وكذلك روى المسلمون أقوال « قس بن ساعدة الأيادي » وضربوا به المثل في الفصاحة ، وشهد له النبي ﷺ وذكره وتذكره وكان قس من أشهر النصارى في الجاهلية كما لا يخفى[1] .

ولم تزل حرية القول عند العرب حتى ما بعد الإسلام بزمن طويل، وكان « الأخطل » ينشد وهو في بحبوحة الدولة الإسلامية.

ولست بصائم رمضان عمري ... ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائل ما عشتُ يوماً ... قبيل الصبح حيَّ على الفلاح[2]

---

(١) قصة تذكر الرسول ﷺ له وردت في عدة روايات في عيون الأثر لابن سيد الناس ٧٢/١ . وفي قصة وفد عبد القيس عند ابن كثير : « طرقها كلها ضعيفة ولكن أصل القصة ثابت » .

قلت : وإذا كان الرسول ﷺ قد ذكره فهو من أهل الكتاب الموحدين القلائل الذين عاشوا قبل البعثة كورقة بن نوفل .

(٢) انظر شرح ديوان الأخطل : « إيليا سليم الحاوي » ، نشر دار الثقافة ببيروت ، ص ٣١ .

ولم ينله أحد بسوء . وأغرب من هذا أن « عبد المسيح الكندي النصراني » كتب رسالة في الرد على دين الإسلام بعث بها إلى « عبد الله بن اسماعيل الهاشمي » في أيام عز الدولة العباسية وسلطانها ، وتناقل المسلمون كلامه ولم يطمسوا منه شيئاً .

وكل ما رواه اليسوعيون من تراجم شعراء النصرانية وأشعارهم ، إنما نقلوه عن مؤلفي المسلمين . وليس بصحيح أن أولئك الشعراء لم يكونوا نصارى وأن النصرانية أضافها مؤلف « شعراء النصرانية » إليهم عمداً ، بل إن قسماً كبيراً من أولئك الشعراء كانوا نصارى بلا خلاف ، وقسماً آخر نصرانيتهم لا يمكن الجزم بها . وسواءً أكان هؤلاء أم هؤلاء فالذين أوصلوا إلى الخلف خبر أنهم نصارى أو أن بعضهم مختلف في نصرانيته هم علماء المسلمين . وأن من يقرأ السير النبوية وتراجم الصحابة كالطبقات الكبرى « لمحمد بن سعد » ، يعرف أن رواة صدر الإسلام لم يكونوا ليعرفوا نشر شيء وطيّ شيء من الأخبار والآثار ، فكل ما اتصل بسمعهم نقلوه . وإنهم رووا من الأحداث ما يجوز أن يتخذه الخصم حجة عليهم وما يكون في نظر المجادل أقرب إلى الذم منه إلى المدح . وما فعلوا ذلك إلا نصحاً منهم في التبليغ ورغبة في التحرّي . ولقد يبلغون من التدقيق أنهم يوردون عشرين أو ثلاثين رواية كل منها بأسانيدها الوافية حتى يملؤوا بها عدة صفحات لأجل تحرير جملة واحدة قالها أحد السلف ، ويمحصوا كيف كانت

تلك الجملة ، وقد تكون الرواية لا تختلف عن الأخرى إلا بكلمة أو حرف وقد يكون المعنى واحداً . وقد وصلوا من هذا المدى إلى حد أن عدّه بعضهم إفراطاً وضياع وقت ، وعابوه عليهم وتهكّموا بهم . ولكن هذا التهكّم لا ينفي شيأً من الحقيقة ، وهي أنهم نصحوا في النقل وتثبّتوا في الرواية ولم يملوا على الناس خيالاتهم وتصوراتهم ولا تعاوروا كلام الناس بتخرّصاتهم بل نقلوا ما نقلوه وتركوا الحكم للقارىء . وبالإجمال وصلوا من تحرير الرواية إلى سدرة المنتهى ، ورموا في أمر التمحيص فيها أبعد شأو المرتمى ، ولذلك عندما أشرت في إحدى مقالاتي إلى أن خلافة الأربعة الراشدين لم تكن ملكاً مطلقاً كما ذهب إليه الأستاذ الشيخ « علي عبد الرازق »(١) واستندت في ذلك على الآثار

---

(١) هو صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وهو من أخطر الكتب في وقته عندما كان البحث يدور حول الخلافة الإسلامية ، والكتاب كما يذكر عنه الدكتور محمد محمد حسين : « يعتمد على المستشرقين » ، ويدور حول إثبات أن الحكم ليس من الإسلام ، لأن الحكم خطط دنيوية لا شأن للدين بها كما يزعم ، ويهاجم كل الحكام المسلمين من أبي بكر رضي الله عنه إلى عصره بلا استثناء ، ويزعم أن حركة المرتدين كانت ضد أبي بكر وأنه قاتلهم سياسة ويستهزىء بكلمة (مرتدين) .

وقد حوكم المؤلف والكتاب من هيئة كبار العلماء فأصدرت حكمها في ٢٢ محرم ١٣٤٤ هـ ـ ١٩٢٥ م ، « بإخراج الشيخ علي عبد الرزاق من زمرة العلماء وفصله من وظيفته » .

انظر : محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية ٢/٧٤ .

التي بين أيدينا ونوهت بما كان من التدقيق والأمانة في النقل عند السلف . وجاوبني الأستاذ بشيء من التهكم من هذه الجهـة ؛ أمسكت عن إكمال هذه المناظرة وقلت : من يماري في حقيقة كهذه ليس لأحد حيلة في إقناعه ، وتركته آسفاً على تمسكه برأيه .

الحكم العربي لا يعرف طريقة كمّ الأفواه وتقييد الأقلام :

الرابع : أن طريقة كمّ الأفواه وتقييد الأقلام ، والأخذ على الخواطر بأفواه الطرق ، وحبس هذا القول وإطلاق ذاك مما يعبر عنـه الإفرنج « بالسانسور » غير معروفة إلا للدول المتمدينة والمجتمعات التي استبحر فيها العمران . ولم يقل أحد أن سكان المضارب وأن القبائل الرحل ومن إليهم من سكان القرى التي أهلها على حال البداوة يعرفون هذا الضرب من ضبط الأحكام وينزعون هذا المنزع في الإدارة ، ولا سمعنا أن أميراً أو مقدّماً من هؤلاء كان يترصد الأفواه ويأخذ عليهـا مذاهبها ويستعرض الخطباء ويستنفض الشعراء عما نثروا ونظموا ، فيَعقِل هذه الجملة ويطلق تلك ويقول : أما هذا البيت فلا ، وأما هذا فنعم الخ . إن هذا لا يكون عند الأمم التي غلبت عليها سذاجة البداوة وكانت قريبة من الفطرة ، وافادتها سكنى البرّية تمام الحرية لاسيما العرب المشهورين بالأنفة وإباء الضيم والهيام بالحرية إلى الدرجة التي لم تعرف لقبيل من الدنيا سواهم ، فتجد خواطرهم وألسنتهم على نمط مضاربهم ومساكنهم لا تعرف التقيد بشيء ، ولا تبغي

إلا الانطلاق . وكل أحد يعلم مشربهم في رفع الرسوم واطراح التكلف والجهل بقواعد التعظيم وسنن التشريف المعروفة للأعاجم وأنهم كانوا يخاطبون الرسول ﷺ والخلفاء : بـ يا « محمد » ، يا « أبا بكر » ، يا « عمر » الخ ، وأنهم إلى يوم الناس هذا ، إذا لقوا ملوكهم خاطبوهم : يا « عبد العزيز » ، يا « فيصل » ، الخ . وقد تناقش مرة المؤرخ التركي « أنور باشا » مع مؤرخ تركي آخر في المفاضلة بين العرب والعجم فكان ميل المؤرخ « أنور باشا » إلى تفضيل العرب ، وكان هوى الآخر مع العجم وأخذ كل منهما يدلي بحجته ، فقال : « أنور باشا » لخصمه في الاستدلال على شمم العرب : (انظر إلى العجم في لقائهم أمراء الدولة وولاتها كيف يخضعون أمامهم وينكسون أبصارهم ويكادون يقعون على الأرض جثياً ، وقابل ذلك بطور العرب إذا لقوا رجال الدولة والولاة ، فإن العربي يقابل الوزير ورأسه مرفوع ويمدّ يده لمصافحته قائلاً له : كيف حالك يا باشا ؟ كأنه يصافح أحد أقرانه) . وإنك لتجد هذا في كبيرهم وصغيرهم لا يعرفون الذل لا ما ظهر منه ولا ما بطن،ولا يطيقون طأطأة الرؤوس ولا يتحملون التكاليف والرسوم التي عند الأمم المنغمسة في الحضارة ، نشؤوا على هذا من آلاف من السنين ، وأبوا أن ينتقلوا عنه كما قال « پيارلوتي » الكاتب الافرنسي الأشهر ، وقد سألوه عند احتضاره : أية أمة أحب إليك من الجميع ؟ فأجاب : (العرب لأنهم

أبوا أن يغيروا أطوارهم من آلاف من السنين) • وكيف يغيرون أطوارهم وهي فيهم من أثر سكنى الصحارى والضرب في الفلوات ومجاورة الطبيعة القحة والنشوء على الفطرة الأصلية وعدم استشعار الهيبة • أفمن كانت هذه أنفتهم وهاتيك شدة خنزواتهم[1] ومن كانوا يقولون للخلفاء في وجوههم مالايجرؤ أن يقوله تركي أو فارسي لمختار قرينه ، ومن كانوا يقولون لعمر : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، ومن كانوا يقولون لمعاوية : إن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها ؛ يقال عنهم إنهم أقيموا على (السانسور) ، وأُخضعوا لبدعة كمّ الأفواه وذلة بيع الضمائر وعقل الألسنة ، وأن هناك شعراً طُوي عمداً لئلا يضر بالدين والدولة ، وأن هناك شعراً نشر عمداً ووضع وضعاً لأجل التمويه على الناس • لا والله لم تكن هذه أخلاق العرب ولا يقول هذا عاقل ، ولا كان الخلفاء في صدر الإسلام ممن يتسفّلون إلى هذا الحضيض الأوهد ويطوون أقوالاً منشورة وينشرون أقوالاً مكذوبة احتياطاً من وراء دينهم ، ولم يكن خامرهم فيه الشك حتى يحتاطوا له بالكذب والبهت ، بل لم يورد كتّاب السير النبوية ما أوردوهُ من الشبهات ومن المطاعن مما قاله أعداء الرسول وأصحابه إلا لأنهم كانوا على بينة من أمرهم ، وكانت

---

(١) الخنزوان : الكِبْر .

أقاويل الخصماء لا تزعزع من عقائدهم ، والإسلام منذ ولد ولد صحيح البنية فلم يجد السلف أدنى حاجة الى خدمته بالتمويه والى نصرته بالطي والحذف . وكان أشد الناس اعتقاداً بمحمد ﷺ أقربهم إليه ، وأحبهم له ولدينه أعلمهم بأسراره وأوقفهم على عجره وبجره[1] مثل زوجته « خديجة » ومثل رفيقه في حياته « أبي بكر » ومثل صهره « علي » ومثل خادمه « أنس » ومثل خادمه الآخر « عبد الله بن مسعود » ، وهلم جراً مما قال الكاتب الانكليزي الشهير في هذا العصر المستر « ولز » إنه من أنصع براهين « محمد » ، لأنه ولو كان هؤلاء من أقرب الناس إليه لو علموا عليه ما يريب أو لحظوا أنه كان يقصد الخديعة أو أن سريرته غير علانيته لا نفضوا من حوله ولم يتمسكوا بكل كلمة تخرج من فمه ولم يكونوا يبيعونه أرواحهم ويستعذبون الموت في سبيله . إن مثل هذه الأمة الحرة يجوز أن تقاتله ويجوز أن تسالمه ويجوز أن تنكر دعواه صرحة برحة[2] ويجوز أن تقبلها

---

(١) قال القاضي عياض في بغية الرائد ص ٦٠ : « عجره وبجره قال الهروي : أي عيوبه ، وقال ابن السكيت : أسراره » . وفي القاموس مادة (البجرة) : ذكر عجره وبجره أي عيوبه وأمره كله ، والظاهر أن المؤلف يقصد المعنى الأخير أي (أمره كله) وهذا هو اللائق برسول الله ﷺ وإن كان الأفضل عدم استعمال مثل هذه الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى في حق الرسول ﷺ .

(٢) في القاموس مادة الصرح : وخرج لهم صرحة برحة أي بارزاً لهم .

وتراها خير دين لها . وأما أن تخدم صاحبها بالكذب والبهتان فهذا مالايقره العقل . ولقد رباهم الرسول على الصدق حتى لقد ورد في الحديث عنه أنه :

« ما كان خلق أبغض إليه من الكذب وما اطّلع منه على شيء عند أحد من أصحابه فيبخل له من نفسه حتى يعلم أن أحدث توبة » (١) .

ورباهم على الخضوع للحق فقد حدثوا أن يهودياً أسلف الرسول ثلاثين ديناراً الى أجلٍ معلوم فتركه حتى إذا بقي من الأجل يوم جاءه فقال : (يا محمد اقض حقي فإنكم معاشر بني عبد المطلب مطل . فقال عمر : يا يهودي أما والله لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك فقال رسول الله ﷺ :

« غفر الله لك يا أبا حفص نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما عليّ ، وهو إلى أن تكون أعنته في قضاء حقه أحوج » . قال : « يا يهودي إنما يحل حقك غداً » ثم قال : « يا أبا حفص اذهب إلى الحائط الذي كان سأل أول يوم فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعاً وزده لما قلت كذا وكذا صاعاً ، فإن لم يرض فأعطهِ ذلك من حائط كذا وكذا » .

---

(١) الحديث في مسند أحمد ١٥٢/٦ عن عائشة قالت : « ما كان خلق أبغض إلى أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أن قد أحدث منها توبة » .

قال اليهودي : فأتى بي الحائط فرضيت تمره وأعطاني ما قال رسول الله وما أمره من الزيادة) • اهـ • [1] ومن باب خضوعه للحق : أنه كان يقيد من نفسه وأنه أقاد مرة من خدشٍ من نفسه• وعن سعيد بن المسيب : (أقاد النبي من نفسه وأقاد أبو بكر من نفسه وأقاد عمر من نفسه) • وأخبر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن شعيب قال : (لما قدم عمر الشام أتاهُ رجل يستعديه على أمير ضربه فأراد عمر أن يُقيدَه منه فقال عمرو بن العاص : أتقيده منه ؟ قال : نعم • قال : إذاً لا نعمل لك على عمل• قال : لا أبالي ، ألا أُقيدُ منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يعطي القود من نفسه) • بمثل هذه الأخلاق أحبَّ الصحابة صاحبهم وفدوه بأنفسهم وأموالهم وبآبائهم وأمهاتهم • ولو لم يعلموه على هذه الصفة من حب الحق ما هاموا بحبه ، وما أطاعوه هذه الطاعة كلها ، وما تمكن من الغلبة الأخيرة على جميع العرب مع صعوبة مراسها وفرط عنجهيتها • أفيقال بعد هذا أن خلفاء الإسلام كانوا يأمرون بوضع الأشعار على الألسن الجاهلية ويرتكبون الكذب والتزوير خدمة للإسلام !

---

(١) انظر هديه ﷺ في معاملته : كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ١/٥٩ . وورد فيه بلفظ : « مه ياعمر كنت أحوج إلى أن تأمرني بالوفاء وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر » .

هل اشترك المؤرخون من سائر الملل في مؤامرة السكوت ؟

الخامس : ولنفرض جدلاً أن هؤلاء الخلفاء وهؤلاء العلماء استباحوا ـــ والعياذ بالله ـــ الكذب لأجل تعزيز الإسلام وعملوا بقاعدة أوربية المنبت وهي « الغاية تبرر الواسطة » فليقل لنا « مرغليوث » أو «طه حسين » أو أحد ممن يقولون هذه المقالة السخيفة : متى وأين صدر ذلك المرسوم الإمامي بأن يُطوى شعر الجاهلية الأصلي ويستبدل به شعر جديد مصنوع ، ويقال : إن هذا هو شعر الجاهلية ؟ وما اسم الخليفة الذي فعل هذه الفعلة ولم يعلم بها أحد على وجه البسيطة ؟ أو ما اسم المجمع الاسلامي الذي أصدر هذا القرار وأين ومتى انعقد ؟ أفلا ترى أن المجمع المسيحي الذي قرر الأناجيل الأربعة ورفض ما عداها وقرر إحراقها معروف تاريخه بحذافيره . أفيمكن أن يكون الإسلام قام بعمل كهذا وأُجمع عليه إلا بأمر خليفة أو بإجماع أمة ولم يعلم بذلك أحد ؟ فمَنْ مِن المؤرخين الشرقيين أو الغربيين قال هذا القول ؟ ولعلهم يقولون ـــ والمتعنت لايقف عن الاستظهار بأية سخافة ـــ إن مؤرخي الإسلام قد طووا هذا الخبر أيضاً وتجاهلوا هذا الأمر الذي أقيمت عليه الأمة وعمسوا هذه الواقعة عمساً (١) ، ومضت القرون وانطوت الحقب حتى أصبح هـــذا الأمر في الآخر نسياً منسياً ! ونجاوبهم أن شيئاً في الدنيا لا يختفي ، وأن كل سر جاوز

---

(١) عمس الكتاب : درسه ، والشيء : أخفاه . انظر القاموس مادة (عمس) .

الاثنين شاع ، وأن حادثة كهذه عرف بها مئات وألوف يستحيل أن لاتشيع وأنها إن لم تسجلها الكتب حفظها التواتر من عصر إلى عصر • ثم إن الإسلام لم يكن في علبة مختوم عليها بشمع أحمر ولا في صندوق مقفل ، بل كان من أول ظهوره مختلطاً بالملل والأمم الأخرى خصوصاً بعد أن فتح الفتوحات العظيمة ولفّ المشرق بالمغرب وضرب بجرانه على آسية وإفريقية وأوربة ، فلم يبق أمة في الدنيا إلا استولى عليها أو تعرّف إليها أو وصلت إليها أخباره بل آثاره ، فلقد كانت المسكوكات الإسلامية متداولة في أقاصي البلاد الإسكندناقية • فإذا فرضنا المحال وأن جميع مؤرخي الإسلام ماتت ضمائرهم ، ولم يبق عندهم أدنى وجدان ولم يبرز فيهم واحد يقول : يا هؤلاء لايجوز لنا الكذب ، وهذا حديث مفترى• أفلم يكن هناك مؤرخون نصارى ويهود ومجوس، ومؤلفون روم وفرس وهند وقبط وحبش وإفرنج ؟ الخ أفخفي هذا الحادث عن جميعهم ولم يعلموا عنه قليلاً ولا كثيراً ولا جاءت عنه كلمة في كتاب ، مع أنهم تعقّبو الإسلام في كل موضع وتتبعوا عوراته ونشدوا كل حادث يشينه أو ينقصه ، ومع أن منهم من افترى عليه البهت ومنهم من وضع من عنده بحقه ، وأن من أهل الكتاب من ألفوا تآليف في عهد الإسلام وفي وسط بلاد الإسلام وطعنوا فيها على دين الإسلام وقرأها المسلمون • أفنقول إن هؤلاء المؤرخين من سائر الملل تواطؤا أيضاً مع المسلمين على تلك الأكذوبة بحق الشعر الجاهلي ، ولم يتعرضوا لها وعملوا عليها مؤامرة السكوت كما يقال ؟!

من كانت تلك العصابة التي تولت كبر هذا التزوير العبقري ؟

السادس : لنقل المحال وأن كل هذه الافتراضات جائزة ، فيبقى علينا النظر في كيفية نظم هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية، فليخبرنا « مرغليوث » أو « طه حسين » مَنْ ذا الذي قام بهذا العمل كله بعد الإسلام ، ومن الذي نظم هذه الألوف من القصائد وألقى عليها هذه المسحة مسحة الجاهلية حتى خفي أمر إحداثها بعد الإسلام حتى على أعلم علماء اللغة ، ومن رتّبها هذا الترتيب وطبّقها هذا التطبيق على الرجال والحوادث والأزمنة والأمكنة ؟ فإن هذه القصائد متعلقة بوقائع شهيرة وبرجال معروفين وبأنساب متسلسلة وهي ذات علامات مطابقة ، حتى أن قسماً من تاريخ الجاهلية مأخوذ منها . فمن الذي أحدث هذه الأشعار التي هي بحر لاساحل له ؟ أكان رجلاً واحداً فرَى هذا الفرِيَّ كله وصنع هذه العجائب والمعجزات وحده ؟ اللهم إن الانفراد بهذا مما تعجز عنه البشر . أم كان هذا الرجل العبقري الذي قام مقام الجاهليين بأسرهم ! معه جماعة يؤازرونه في عمله . فإن كانوا جماعة فمن كانوا ؟ وأين كانوا ؟ ومن ذكر من خبرهم شيئاً ؟ أفلا ترى كيف أن جمعية « إخوان الصفاء » (١) عرف الناس خبرها

---

(١) جماعة من الإسماعيلية ألفوا رسائل عددها أكثر من خمسين رسالة في الإلهيات وأنواع العلوم على مذهبهم .

وكتبوا عنها ، وجمعية « الحشاشيين »[1] ذكروا تاريخها ، ولم يعلم أن جمعية تألفت في الاسلام إلا وقد عثر الناس لها على أثر • أفلا يخبرنا « مرغليوث » من حيث أنه فهم من تاريخ العرب ما لم يفهمه أحد ، أو « طه حسين » ـ الذي يتولى تدريس الأدب في أكبر جامعة عربية ـ مَنْ كانت تلك العصابة من أدباء العرب بعد الاسلام التي تولّت كبر هذا التزوير العبقريّ والكذب الذي جاء أبهى من الصدق مما أقرتهم عليه دولة الاسلام أو ندبتهم له ! ثم أين عاشت تلك العصابة وأين قبعت وفي أيّ سردابٍ خلا بعضها إلى بعض ؟ وهل جرى بينها توزيع أعمال فقيل لهذا : قــل أنت قصيدة على لسان « الحارث بن حلزة اليشكري » ، وليقل فلان مقطوعة على لسان « تأبط شــراً » وأنا أقــول كلمة على لسان « عمرو بن كلثوم » ! أفكان هناك مدير للحركة التزويرية أم كان كل من هؤلاء يعمل بخاطره وبما يلوح له غير مقيَّد بأمر ولم يكن لهم بروغرام[2] يسيرون عليه ؟ سبحان الله ما أشد انتظام عملهم وأحسن انطباق نظمهم على الوقائع برغم هذه الفوضى ••• ثم نسأل أيضاً أكانت هذه الحوادث التي لا تنتهي من حرب وسلم

---

(١) بقايا الفاطميين سكنوا قلعة المَوت في ايران وكان رئيسهم الحسن بن الصبّاح •

انظر : عبد الرحمن بدوي ، مذاهب الإسلاميين ٢/٣١٤ •

(٢) كلمة أجنبية ومعناها : برنامج •

وحب وبغض وفخر وحماسة ومدح وهجاء ووعظ ورثاء الخ مما صيغ لأجله هذا الشعر هي أيضاً إيجاداً واختراعاً أشبه بالقصص المسمى « بالرومان » ولم يكن لها أصل إلا في مخيلة أولئك الوضّاعين أم كانت صحيحة وكان وجود أولئك الرجال واقعياً وإنما عصبة الشعراء المجهولة هذه جعلت عليها قصائد موضوعة منحولة غير قائليها وسيرتها بين الناس على أنها لهم فسارت بين الناس على أنها لأولئك الجاهليين وقيل « خماد » و « الأصمعي » وغيرهما أنشدوها الناس وقولوا إنها لفلان وفلان ، وقولوا : إنها أنشدت في سوق « عكاظ » أو قولوا : إنها عـُلقت على جدران الكعبة ، واكتموا حديث الوضع وإياكم أن تخبروا به أحداً وتفضحوا السر ! وهكذا تمّ لخلفاء الإسلام ما أرادوا من تبديل الحقيقة هذا التبديل الذي حرصوا عليه كل هذا الحرص ــ لأمر لا نعلمه ــ وبقيت هذه المؤامرة المدبَّرة بليل لم يحسّها أحد حتى كأنها عمل شخص واحد برغم أن الذين قاموا بها ينبغي أن يكونوا جمّاً غفيراً،فالخلفاء وبطانتهم والشعراءوعصبتهموالرواة وحلقتهم، وهؤلاء لا يقدرون أن يبثّوا كل هذه الموضوعات في العالم الاسلامي إلا إذا كانوا كثيرين ، فلله درّهم ما كان أقدرهم على حفظ السر . على أن هناك ما هو أغرب وهو أن « طه حسين » يتهم بوضع هذا الشعر الرواة الذين رووه والنحاة الذين قصدوا به تأييد قواعد النحو واللغة على حد حكاية (الخنفشار) ،

والمحدّثين الذين ابتغوا به تأييد لغة الحديث ، والمفسرين الذين توخّوا به تعزيز أسلوب القرآن . وينسى أن شعراً كهذا لا يقوم به إلا شعراء فحول ، وأن كل الذين ذكرهم لو قاموا له لا يقدرون على مثله . هذا على فرض المحال أن كل أولئك العلماء الأجلاّء كانوا مدلسين وضاعين كذابين مفترين ! يسهل على « طه حسين » أن يتخيل الكذب في العلماء والمحدثين والمفسرين إلى ذلك الحد والحقيقة إنه ليس بسهل أصلا وليس بمعتاد ولا بمعقول ولا مقبول . يقول إنهم كانوا « أتقياء بررة » وينسى أن التقوى لا تمتزج مع الكذب والافتراء . ويقول « كان القدماء مخلصين في حب الإسلام فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه ، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤيد الاسلام ويُعزّه ويُعلي كلمته فما لاءم مذهبهم أخذوه ، وما نافره انصرفوا عنه انصرافاً » ولا يوجد أعرق من هذا الكلام في السفسطة إذ يجوز أن يكون القدماء مخلصين في حب الإسلام وأن يتأبّوا عن خدمته بالكذب والافتراء، ويجوز أن يكون القدماء مخلصين في حب الإسلام ، وأن يجدوه مالكاً من البراهين ما يستغني به عن الاختلاق الذي من عادته أنه يضر بالقضية التي يراد تعزيزها به أكثر مما ينفعها . ويجوز أن يكون الانسان صاحب ثروة وأن يتورّع عن زيادة ثروته بالمال الحرام ، لا بل يعتقد أن إضافة الحرام إلى ماله قد تذهب بماله

وإن لم يكن يعتقد بذلك تديّناً اعتقد ذلك سياسة وحكمة ، لأنه يخشى إذا حاول زيادة ثروته بالسرقة أن تعلم الحكومة بسرقته فتعاقبه وتجزيه وتغرّمه بما يذهب بماله كله • فالمسلم المخلص في حب الإسلام أجدر بأن يتحامى الكذب والتدليس في خدمة الإسلام خشية أن يكون أدخل بهذا التلفيق على براهين الإسلام شوائب لا يلبث أن يفتضح أمرها وأن يعلم أنها أكاذيب ، فتقع الشبهة حينئذ في الإسلام كله • وأما قوله إن القدماء من إخلاصهم في حب الإسلام : « أخضعوا له كل شيء » فجملة لا معنى لها ، ولا يفهم الانسان مراده من قوله « أخضعوا له كل شيء » • أيريد أن يقول إن الكذب والاختلاق هما من باب إخضاع كل شيء ! أفلا يعلم أن الذي يكذب ويختلق ، هو الذي ينهي الأمر بأن يخضع لا بأن يخضع له ، وأنه لا يوجد موطن ضعف أكثر من الكذب ، وأنه ما عزّز الانسان قضية يحبها بمثل الحق • وليس بصحيح أن القدماء « لم يتعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام » ، فقد كتبوا من العلم عشرات ألوف من المجلدات التي ليست في شيء من الإسلام ، ولا نقول إنها كانت تناقض الإسلام لأن الاسلام ليس بعدو للعلم حتى تناقضه ، ولكنها لم يكن لها تعلق بالدين ولم تكن جميع مباحث المسلمين منحصرة في الدين • كما أنه ليس بصحيح أنهم لم يتعرضوا لفصل من الفصول إلا من حيث أنه يؤيد الإسلام ،

فإن كتب الأدب والمحاضرات إن لم يكن فيها ما يناقض الإسلام فإن فيها كثيراً من الغزل والتشبيب وأخبار العشاق لا بل من المجون والبذاءة والسفاه ما هو كله منهي عنه في شرع الإسلام فكيف يقال إنها تؤيد الإسلام ؟! ولقد نقل القدماء حكمة يونان وحكمة فارس وحكمة الهند وحكم أمم أخرى وكثيراً من آدابها وقصصها وأمثالها وليس في ذلك شيء راجعاً إلى الإسلام أو صادراً عن الإسلام وإن كان الإسلام لا يأباها[1] • ولقد كان الأخلق بهم ــ لو أرادوا حصر كل شيء في الإسلام ــ أن لا ينقلوا هذه العلوم إلى اللسان العربي لأنها علوم أمم وأقوام أجانب عن الإسلام • فالنقل عن الأجانب لا يكون واسطة لتأييد الإسلام • والحقيقة أن كلام « طه حسين » هذا خلط لا يقوله أطفال ، وأن الإسلام حثّ على العلم أينما كان وقال : الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها ، وبناء على هذا نقل المسلمون هذه العلوم ورغبوا فيها •

متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين ؟

السابع : نسأل « طه حسين » و « مرغليوث » أن يتفضّلا علينا بالتبيين متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين وفي أي حقبة من حقب الإسلام ؟ فإن لهذه المسألة مكاناً خاصاً من

---

(١) صحيح أن المسلمين نقلوا علوم من قبلهم وهم في حالة اعتزاز لاحالة ضعف ، ولكن بعض هذه العلوم مثل الفلسفة اليونانية كان لها تأثيراً شديداً على عقلية المسلمين .

الأهمية ، لأنه من المعلوم أن شعر الجاهلية هو الذي منه شواهد النحو والصرف واللغة وأنه الحجة التي يستشهد بها عند التصحيح• ولما كان قد خفي ـــ بزعمهم كون هذا الشعر محدثاً مصنوعاً ـــ على أولئك الأئمة : «الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي عمرو والفرّاء وأبي زيد وابن دريد » ، وعلى « البصريين والكوفيين » الخ ! استشهدوا به في كتبهم وحلقات دروسهم ودونوا هذه الشواهد ، لا بل استخرجوا من تلك المفردات قواعد عامة وسموا ذلك علم النحو وعلم الصرف وعلم اللغة ، وأخذ « الخليل » من أوزان تلك الأشعـــار علم العروض • فيجب علينا أن نعرف في أي دور من أدوار الإسلام وقع هذا الوضع وهذا التزوير ، لأنه إن كان في زمان الخلفاء المتقدمين فيكون وُضّاع هذا الشعر ورواته قـــد عاصروا كثيراً من واضعي النحو وجامعي اللغة ، وعاصروا « أبـــا الأسْود الدؤلي » ولا يُعقل أنهم كانوا في عصـــر واحـــد وأن النحاة واللغويين استشهدوا بشعر وضعه أناس في عصرهم عائشون بين أظهرهم ولم يشعروا بما فعلوه ، والحال أن من عاداتهم أنهم إذا ارتابوا في بيت نبذوه ومنعوا الاستشهاد به • وإن كان هذا الوضع متأخراً إلى زمن الخلفاء العباسيين مثلاً فلا يعود ممكناً أيّ تأويل لقضية الاستشهاد بهذا الشعر في قواعد النحو واللغة ، لأنه يصير زمن الوضع متأخراً عن زمن الاستشهاد ، أي أن هذا الشعر صنع بعد أن استشهد به وبعبارة أخرى أنه متأخر عن نفسه ••

وهذا محال • فلا يخرجنا من هذا المأزق إلا تعيين تلك الحقبة التي وضع فيها هذا الشعر !• ولما كان الدكتور « طه حسين » حكم بأنه موضوع مصنوع وأن الصحيح منه قليل جداً ، فلا بد أن يكون بنى حكمه على مقدمات كافية من جملتها معرفة أسماء الصانعين والتاريخ الذي صنعوا فيه ، ولهذا كنا نودّ لو جاد لنا بالتعيين والتوضيح لأن مجرد الشك لا يكفي مداراً للحكم كما لا يخفى •

الحقائق لا تكون تحت رحمة الشكوك :

الثامن : أن « طه حسين » يعلن فيما سمعت أنه لم يثبت عنده من الكلام العربي الذي ظهر في الجاهلية سوى القرآن • ولا نعلم لماذا لا يعترض على ثبوت المصحف أيضاً ؟ فإن كان ذلك من أجل ثبوته بالتواتر من عهد رسول الله ﷺ إلى عهد خلفائه الراشدين وأن الناس اتفقوا عندما جمعه « أبو بكر » وكتبه « عثمان » في المصاحف على أن هذا هو القرآن وأن اتفاق هؤلاء المئات والألوف من الحفّاظ لا يمكن أن يكون على باطل ، فإننا نقول له حينئذ : إن هناك أموراً وحوادث أخرى قد أثبتها التواتر أيضاً وإن لم يكن بدرجة القرآن من أجل صفته الدينية ، فلقد ثبت ثبوتاً لا يحتمل المراء ، ومنها هذا الشعر المعروف بشعر الجاهلية ، فهذا ثابت بالعقل والنقل وبالدراية والرواية أنه شعر قاله شعراء الجاهلية ، وأنه ليس بمصنوع ولا منحول بعد الإسلام،

وأن المصنوع منه نزر لا يذكر قد نبَّه عليه العلماء • وإن قال : إلا أن بعض الناس قد طعنوا في صحة نسب الشعر الجاهلي • قلنا له : ولكن التمحُّل لا يبطل حقاً ولا يحق باطلاً ، وأن بعض الغلاة من الشيعة لا جمهورهم يزعمون أن القرآن الكريم أيضاً حُذف منه وأضيف إليه ، وليس هذا القول أكثر من سخفٍ وهراء ، وأن الحقائق التاريخية لا تبطل بمجرد تعنت متعنّت أو جحود جاحد • ولقد ذهب عدد من كتاب أوربة ومؤرخيها وفلاسفتها أن « المسيح » لم يوجد وأنه Mythe أي أسطورة من الأساطير ولكنهم أخطؤوا لا لأن الأناجيل ثابتة بالتواتر بالدرجة التي ثبت بها القرآن ، ولكن لأن الأدلة التي أقاموها أضعف جداً من الأدلة القائمة على مجيء « السيد المسيح » صلوات الله عليه ، حتى إن « نابليون » عبقريّ الدهر أوردَ ريبته في مجيء «المسيح» أمام أحد العلماء فقال له هذا : يا مولانا إنه هكذا يبطل التاريخ • فسكت « نابليون » واقتنع ، وكل عاقل يذعن للحق • فليس الحق إذاً موقوفاً على إثارة شبهة أو على نتيجة منطقية مقدماتها فاسدة : « كان القدماء أتقياء يحبون الإسلام ويريدون تعزيزه • ومن باب تعزيز الإسلام إلغاء شعر كان قبل الإسلام ، فلذلك ألغى القدماء كل ما قيل قبل الإسلام ووضعوا شعراً آخر بدلاً عنه » ! والحقيقة أنه كان القدماء أتقياء يحبون الإسلام ويريدون تعزيزه ، ولكنهم كانوا أتقى من أن يعززوه بالكذب ، وأعقل من أن يجهلوا أن

الكذب بئس الدعامة وأنه يضر أضعاف ما ينفع . ثم إن الشعر الجاهلي الذي بين الأيدي ليس فيه شيء من باب تعزيز الإسلام فياليت شعري لماذا وضعوه ؟ وماذا استفادوا منه في قضيتهم ؟ . هذا وإن كثيرين من هؤلاء الشعراء الجاهليين عاشوا إلى زمان الإسلام ويقال لهم المخضرمون ، ورآهم النبي ﷺ ورأوه ، وقد جاءه منهم الأعشى ومدحه وقال له :

فآليتُ لا أرثي لها من كلالةٍ ولا من وجى حتى تزور محمدا
نبيٌّ يرى مالا ترون وذكرُه أغار لعمري في البلاد وأنجدا[1]

ومدحه كعب بن زهير بقصيدة (بانت سعاد) المشهورة ، وطرب لها رسول الله ﷺ وألقى إليه ببردته الشريفة . ولما وصل إلى قوله :

إن الرسول لسيف يُستضاء به مهند من سيوف الهند مسلولُ

---

(١) جاء في (الشعر والشعراء) لابن قتيبة في ترجمة الأعشى : أدرك الإسلام في آخر عمره ورحل إلى النبي ﷺ ليسلم ، فقيل له : إنه يحرّم الخمر والزنا فقال : أتمتع منهما سنة ثم أسلم ! فمات بقرية باليمامة . وفي رواية أنه خرج يريد النبي ﷺ فلقيه أبو سفيان ابن حرب فأعطاه مائة ناقة على أن يرجع إلى بلده ، وذلك خوفاً من أن يشتهر أمر محمد ﷺ بين العرب على لسان الأعشى .

وهذا الشعر الذي ذكره المؤلف ورد في الأغاني بصيغة (وذُكر) وفيه أن الأعشى لم ير الرسول ﷺ .

قال له الرسول ﷺ : من سيوف الله • وهكذا سار البيت من بعدهـا •

ورأى الرسول ﷺ زهيراً نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتياً وقال :

« اللهمَّ أعذني من لسانه » (١) •

ووفد عليه شعراء وخطباء،ووفد على خلفائه من بعده ورآهم الخلفاء وعرفوهم وعرفوا أنهم آباء ذلك الشعر وقال عمر : (مَن أشعر الناس ؟ فصار كلٌ يذكر شاعراً • فقال لهم : أشعر الناس صاحب ومَن ومَن أي زهير في المعلقة) • وكلّ من كان في محيط الخلفاء من صحابة وتـابعين وممن رأى ورأى مـن رأى ، كانوا يعرفون هؤلاء الشعراء ويعرفون شعرهم وما اختلفوا فيه ، وأن المختلف فيه لنزر لايذكر كما تقدم ، وما محص العرب شيئاً أكثر مما محصوا الشعر • فإذا كان بعد هذا كله لايلذ للدكتور « طه » إلا الشك ، فاليقين لايزول بالشك كما قال الفقهاء ، وبمثل هذه الطرق في البحث لايبقى تاريخ كما قال صاحب نابليون لنابليون •

هذا ما عندي من أمر الشعر الجاهلي ، وإني لأجدُ فضولاً بعد أن جال في هذا الميدان فحول وَفّوا هـذا الموضوع حقّه

---

(١) جاء هذا الحديث في الأغاني بصيغة التمريض (روي) ، وكذلك في إمتاع الأسماع للمقريزي : بصيغة (قيل) .

ولكن ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) ١٤١/١ قال : « وكان زهير جاهلياً لم يدرك الإسلام » .

فحفروا وأنبطوا وغاصوا فالتقطوا ، وجالوا فجادوا وأنفسوا ، وناضلوا فرموا وقرطسوا،ولو لم يكن من هؤلاء الفحول الصائلين سوى الأستاذ « محمد أحمد الغمراوي » مدرس الكيمياء في كلية الطب في تأليف هذا الكتاب الباهر ذي البيان الساحر والبرهان الذي يقطع الأباهر لكان مغنياً عن جولان التالي مع المجلّي وعن مقارنة الإمام بالمصلي ، وإنما أردت أن أُلقي دلواً في الدلاء وأكون على هذا الخصل الباهر من جملة الأدلاء . ولعمري ان الجواد عينه فرارُه ولذلك حسبي من وصف هذا الكتاب الإشارة إلى بعض ما فيه مردفاً إياه بما يعنّ لي في بابه . قال في صفحة ١٨ :

تدريس الآراء الفطيرة باسم التجديد

« كتاب الأدب الجاهلي الآن والشعر الجاهلي من قبل ، ليس إلا مجموعة من الآراء الفطيرة التي خالف بها صاحبها جمهور أهل فنه ، ولم تتناولها العقول والأقلام بالفحص والتمحيص إلا بعد نشرها في صورة كتاب ، مع أنَ الكتب لم تجعل في العادة خصوصاً ما أعد منها للطلبة المبتدئين إلا لتضم المفروغ من إثباته وتشير من بعيد إلى الحدود التي بلغها العلم . ومن الغريب المدهش أن تلك الآراء لم تنشر على أهل العلم والأدب في هذا البلد إلا بعد أن كانت أُلقيت بالفعل على طلبة الجامعة وامتحنوا فيها . أُلقيت عليهم باسم التجديد في الأدب كمثلٍ من أمثلة البحث العلمي الحديث . ولسنا نعرف أعرق في الظلم وأبعد عن أصول التربية من هذا النمط في التعليم . ولسنا نعرف أعرق في الرق العقلي وأبعد عن التربية الحرة من

أن يتحكم شخص هـــذا التحكم في عقول النشء فلا يعلّمهم إلا رأيه الخاص ولا ينشّئهم إلا على مذهبه الخاص •• الخ » •

فليسمح لي الأستاذ « الغمراوي » أن أعلل له النفسية التي ساقت إلى مانبَّه عليه مما هو في الذروة العليا من الأهمية•أولاً : إن الشرق أراد خلع القديم في التعليم وتقليد الغرب فيه • ثانياً : إنه لم ينضج نضوجاً كافياً في التقليد فصار يظن أن كل مخالفة لشيء سابق في الذهن بخطأ أم بصـــواب ، هي الأسلوب الغربي الذي يجب الأخذ به • ثالثاً : إن « طه حسين » لم يُرد شيئاً سوى المخالفة لرأي الجمهور الذي صار الإجماع عليه حتى الآن ، وهذا مُعدٌّ ليكون مقدمة لخرق إجماعات أخرى في علوم أخرى [1]• رابعاً : عند هؤلاء المتهوسين بتقليد الغرب كل رأي جديد فطيراً أو متخمراً يطلق عليه اسم : « حقيقة علمية » ، مع أن النظريةالجديدة هي غير الحقيقة العلمية كما لا يخفى • وأن هذه « الحقائق العلمية » في الطب والطبيعيات والعلوم المادية لاتزال تتجدد وينقض آخر منها أول ، فما بالك في الأمور الأدبية والتاريخية • خامساً : إنه بحسب هذه القضية الفاسدة يكون رأي « طه حسين » الذي هو رأي جديد في الأدب « حقيقة علمية » رأساً فلا يحتاج إلى فحص ولا تمحيص • أو ليس مخالفةُ ما قرره السلف هـــو « الحقيقة

(١) خرق إجماعات مثل إجماعات في النحو والإملاء والقراءات ومن ثمّ بعدها في الأصول والعقائد . . .

العلمية » ؟ . سادساً : إن الهوس بقبول الجديد بدون فحص ولا تمحيص ولا سيما في مواضيع نحن أدرى بها من متطفلة الغربيين، يعد ضرباً من الحماقة . سابعاً : إن المسؤول عن تدريس آراء غير ممحَّصة كهذه في المدارس العائدة للدولة والتي تُنشَّأ فيها أحداث الأمة هو نظارة المعارف . ثامناً : إن المسؤول عن تهور نظـارة المعارف هذا هو مجلس الأمة . تاسعاً : إن المسؤول عن إهمال المجلس مناقشة نظارة الحساب على تدريس آراء لم يقم دليل معقول على صحتها هو الأمة التي تركت نوابها يغضون على هذا التضليل فالأمة هي المسؤولة في هذا التضليل وفي أمثاله ، والأمة هي التي يجب عليها تقويم نوابها ، والنواب هم الذين يجب عليهم أن يسألوا الحكومة في المجلس ، والحكومة هي التي يجب أن تجاوب عن إرخائهـا العنان لرجل يلقي على النشء آراءً سخيفة ويجعلهـا « حقائق علمية » ويا للأسف (١) .

بحران الشرق الاجتماعي

وفي صفحة ٢٠ يقول :

« فالناس يستحسنون في الماديات الجديد ويفضلونه على القديم . فالملبس مثلاً والمسكن الجديد ، خير عندهم من مثله من القديم وهم يأخذون في ذلك بتجاربهم فهم فيه على صواب .

---

(١) يشير المؤلف إلى دور الأمة وأنها مسؤولة عما يحصل من الأمور وليس الحكام أو العلماء وحدهم هم المسؤولون .

لكن إذا نَقل ناقل القِدَم والجدة إلى المعنويات فبدأ يكلم الناس عن الأدب القديم والأدب الجديد والمدنية القديمة والمدنية الجديدة، كان الناس على خطر وبدؤا يستقبحون ويستحسنون من غير أن يكونوا غالباً على صواب في الاستقباح والاستحسان : يستحسنون المدنية الجديدة ولعلها شرٌ من المدنية القديمة ، ويستقبحون الأدب القديم ولعله خيرٌ من الأدب الجديد . وهم لا يفعلون ذلك لأنهم يرون مدنية خيراً من مدنية وأدباً شراً من أدب ، لكن لأن الجدة فيما ألفوا من المحسوسات مقرونة عندهم بالتفضيل فيُجرون المعنويات مجرى الماديات عفواً من غير قصد ، ويقعون طبعاً في الخطأ نفسه الذي يقع فيه طالب المنطق حين يستعمل في قياس واحد لفظاً واحداً مشتركاً بين معنيين مختلفين . والناس معذورون إذا فعلوا هذا ، إذ ليس منتظراً من جمهورهم أن يكونوا مناطقة مدققين أو أن يحذروا سوء استغلال قانون الربط أو القِران النفسي ، إنما تقع عليه تبعة ذلك الخطأ الخفي البالغ هو ذلك الذي يستغل أمثال تلك الألفاظ من غير حق وينقلها عما ينطبق جوها عليه إلى مالا ينطبق جوها عليه . وإذا كان هذا الاستغلال منتظراً أو على الأقل لا يمكن منعه في الدعايات الحزبية وحيث تراعى المصلحة ولا تراعى الحقيقة فإن الابحاث العلمية والأدبية يجب أن تبرأ منه إذ يجب أن يكون للحقيقة فيها المكان الأول » .

قد مسَّ الاستاذ « الغمراوي » هنا أهم موضوع تجول فيه أفكار المفكرين ألا وهو موضوع (البحران الاجتماعي) الذي

يتخبط الشرق من أوله إلى آخره والذي كل واحد يرى فيه رأياً ، وقد عمّت فيه الحيرة واشتد الاضطراب وتصادمت الأفكار وتوافقت الميول وتناجزت المشارب ونظير جميع الأشياء التي تبتدىء فتنتهي أفعالاً وتنزل من الرأس إلى اليد • انتهى هذا البحران من اللسان إلى السنان ومن القلم إلى الحسام ، فسالت الدماء وزهقت الأرواح • ولكننا لانزال في مبدأ البحران ولم نخض إلا رقارق من الماء • وسيأتي يوم تسيل فيه دماء وتزهق نفوس أضعاف أضعاف ما جرى إلى الآن ؛ بل ماجرى إلى اليوم سيُعدّ بجانبها لعباً ودداً •

هذا البحران الاجتماعي أساسه أن الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور ، ورأى الشرقيون أنفسهم قد أُحيط بهم وأصبحوا لايملكون مع الغربيين أمراً ، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغربي فقالوا : ليس لنا إلا أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه • ولما كان سلاحه هو الثقافة الأوربية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغربي من تسخير البخار والكهرباء قالوا : لابد لنا من أن نختار لأنفسنا هذه الثقافة ، فإذا تحققنا بها صرنا أكفاء للغربيين ورفعنا سلطتهم عنا • وإلى هنا كان الخلاف يسيراً وكان الجامدون على القديم قد يذعنون للقواعد القديمة التي منها أن الضرر لايكون قديماً ، والتي منها أن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنَّى وجدها وأيَّان وجدها ، والتي منها

الأمر بالسير والنظر وتدبّر أسرار الكون والاكتراث لأمر الدنيا كما لأمر الدين وغيرذلك مما ليس لجامد معه أدنى مجال للمكابرة. ولكن الذي اصطدمت فيه الأفكار واصطكّت الآراء ولمعت من اصطكاكه بوارق الشر التي لاتزال مع ذلك في مباديها هو : هل يجب أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها ونقبلها على علاتها ونتلبس بها في طويلها وقصيرها وأحمرها وأسودها ، وأن نتلقى هذه النظريات كلها من مادي ومعنوي بدون استثناء ونتلقاها قضايا مسلمة لايجوز لنا النزاع فيها أو الاعتراض على شيء منها ، أم يجب علينا أخذ النافع وترك الضار وتلقي العلوم المادية الباحثة في المواد الصامتة بدون تجاوز ذلك إلى المنازع الروحية وإلى مصدر إدارة الكون ؟ وبعبارة أخرى هل ينبغي لنا أن نأخذ عن الأوربيين كل مادي وأدبي وطبيعي وروحي ومعنوي ؟ أم يجب أن نقتصر على البحث واختيار الأنفع والأجدر بأن يصيبنا من تركه ضرر ، وأن نحافظ على ثقافتنا الشرقية القديمة التي هي من مقومات وجودنا ومشخصات استقلالنا ، وعلم عقائدنا وآرائنا في الأمور الاجتماعية والأدب واللغة والكتابة والغناء وطرز البناء واللباس والفراش وما أشبه ذلك ؛ فهذه كلها مواضيع أصبحت ميادين جدال وستنقلب ميادين جلاد ، وكانت معتركات عقول فستصير معتركات أبدان .

فبعض الشرقيين ذهب إلى أن الثقافة الغربية يجب أخذ الشرقيين لها بحذافيرها وعلى علاّتها ومع جميع مستتبعاتها وبدون جدال فيها . وقال التركي « أحمد أغايف » : (إن المدنية الأوربية كلٌّ لا جزء ، وإنها أشبه بالجوهر الفرد الذي لا يتجزأ بعضه عن بعض . أي إذا وجب علينا أن نأخذ بقول « سبنسر » في مسألة اجتماعية أو « داروين » في مسألة كونية أو « باستور » في مسألة ميكروبية ، وجب علينا في الوقت نفسه أن نلبس زيّ هؤلاء العلماء ونأكل مثل طعامهم ونتلذذ بمثل ما يتلذذون به من الموسيقى ونقيم بمساكن أشبه بمساكنهم من جهة هندسة البناء ، ونذهب مذاهبهم لا في العلوم الطبيعية فحسب بل في العلوم الأدبية والفنون الجميلة وفي الأدب والشعر وأسلوب الكتابة) .

ولعل للغلاة في هذا المشرب مأرباً سياسياً خاصاً ليس هنا مكان شرحه ، إذ أن بعض أمم الشرق الأدنى كانت حتى اليوم مطبوعة بطابع المدنية العربية ، وكانت تصيب من وراء ذلك جاهاً وعزّاً وبسطة في الملك ، فلما تحولت الأحوال وصارت الكلمة العليا للأوربيين رأى بعض رجالها أن تطبع نفسها بطابع أوربي بحت تزلفاً للأمم الغالبة واندماجاً في غمارها وتفصياً [1] من الأمة العربية التي هي في الواقع أجنبية عنها ولم تدخل في دينها ومدنيتها إلا من ألف سنة جباً بالملك والسلطان اللذين كانا مقرونين يومئذ بدين

---

(١) أي انفصالاً .

العرب وحضارة العرب،فلما زال السبب اقتضىأن يزول المسبب[1] وعلى كل حال لم تخسر تلك الأمة التي تريد أن تجحد ماضيها العربي شيئاً من عندها ، بل هي كانت متلبسة بثوب عارية فتريد الآن أن تخلعه وتلبس ثوب عارية آخر ، فهي من مستعار ، تستعير بحسب أحوال الزمن .

ولعل أصحاب هذا الرأي من تلك الأمة مخطئون في غلوّهم ، ولكننا نتركهم وشأنهم ينتصف بعضهم من بعض ، وسيرى الناس كيف تكون العاقبة ، والحكم للنتيجة لا للمقدمات .

ولكننا نخاطب الأمة العربية التي هي وحدها عالم كبير يملك جميع مقومات الأمم الكبرى ، فنقول لها :

ليست العلوم والمعارف في الدنيا شرقية ولا غربية ، بل هي سلسلة واحدة يلد بعضها بعضاً : فشرقي أصله غربي وغربي أصله شرقي وهلم جراً . فكلمة « العلوم الأوربية » اصطلاح عامي في الحقيقة ، فإن العلم لا وطن له .

لنفرض أن هذه العلوم المسماة « أوربية » هي وضع الأوربيين وحدهم ، فليس ذلك بسبب أن تتحول إلى أوربيين وأن تنكر

---

(1) إن كان يقصد الأعاجم الذين أسلموا ، فهذا الكلام لاينطبق عليهم كلهم بل على أفراد بقيت في أذهانهم جاهليتهم ، فلما رأوا ما عليه الغرب رجعوا إلى هذه الجاهلية ، وبتحريض من الغرب نفسه ، وهذا ينطبق علم شعوب أخرى أيضاً .

أصلنا ونجحد قوميتنا من أجلها لأننا نقدر أن تتعلم هذه العلوم ونطبقها بالعمل ونحن باقون على عربيتنا • فاليابانيون هؤلاء قد نقلوا جميع هذه العلوم إلى بلادهم وضارعوا فيها الأوربيين بالتمام والكمال ولم يزالوا يابانيين في كل شيء • وكذلك الافرنج أنفسهم نقلوا علوم الشرق من قبل إلى بلادهم وأبَوْا أن يكونوا شرقيين • وهم إلى يوم الناس هذا مع رقيّهم في العلوم الطبيعية والرياضية الصحيحة يأبون أن يتحولوا عن عاداتهم ومشاربهم وتقاليدهم وعقائدهم التي منها ما لا ينطبق على هذه العلوم • وإن من أرقى أممهم في الحضارة والمعارف المادية الأمة الانكليزية[1]، هذا لا يختلف فيه اثنان ، ولها من السيادة على المعمور ما لا يدانيها فيه أمة أخرى ، وهي أشد الأمم استمساكاً بدينها وتقاليدها وتذكراً لماضيها ونزوعاً إلى المشرب الروحي •

لنقل إن الأوربيين هم أبحر للعلوم منا وأطلع على خزائن الغيب[2] وإن معارفهم هي التي كسبت لهم هذه البسطة وهذه السلطة ، فلا يوجب ذلك أن نأخذ معارفهم بدون جدال لأن هذا خلاف شرط التمحيص الذي تعده المدنية الأوربية من مزاياها ؛ ولأن المحققين من الأوربيين أنفسهم لا يدّعون أنهم على حق في كل شيء وأنهم وضعوا الحقائق في جيوبهم وجف القلم •

---

(١) هذا في زمن حياة المؤلف .

(٢) لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه .

لنقل إن معارفهم من حيث المجموع هي أرقى من معارف الشرقيين ، فليس يعني ذلك أنهم صاروا أبحر منا في العلوم الخاصة بلغتنا وآدابنا وأن قولهم في الأدب العربي صار ينبغي أن يكون فصلاً وأنه من حيث كان الذي كشف أشعة « رونتجن » أوربياً وجب أن يكون الأوربي أدرى من العربي بشعر الجاهلية ، وأنه إذا خلط منهم خالط في هذا الموضوع لزم أن نحترم خلطه ونحتشم ضلاله . فالعلم ليس ملكاً لأوربي ولا لعربي وإنما هو مشاع أولى الناس بأن يحكم فيه المتخصص به من أيّ قوم كان . فنحن أدرى بلغتنا وبأدبنا وبشعرنا من الأوربيين ، وبالتالي أصح حكماً على هذه الأشياء منهم .

ليس الشرقي مرادفاً لقديم وليس الغربي مرادفاً لجديد ، بل عند الغربيين عقائد وعادات وأطوار وأوضاع قديمة قد تكون أقدم من أندادها عند الشرقيين . فمن أكبر الأغلاط تلقي كل قول أوربي جديداً وتنزيله منزلة اختراع صناعي أو كشف علمي .

ليس كل شيء قديم منبوذاً وليس كل شيء جديد ــ برغم أن كل جديد له طلاوة ــ مرغوباً فيه ، بل ينبغي أن يُنظر في العلم إلى الأصح ، وفي العمل إلى الأصلح ، بدون ملاحظة أن هذا جديد وذاك قديم .

إن كان كل قديم يجب نبذه والعدول عنه إلى جديد ، فلا يكاد يوجد شيء أقدم من الخبز الذي لا يزال الخلق مجمعين على اتخاذه قوتاً في كل مكان وجد فيه القمح . ولو مضت مائة ألف

سنة لما كان العسل إلا عسلاً بطعمه وخواصه كما كان منذ مائة ألف سنة قبل اليوم • إن هذه أمور مرتبطة بالذوق الانساني ومقتضى الفطرة البشرية ، فما دام الانسان هو الانسان فهناك بالنسبة إليه أشياء ليس فيها قديم وحديث •

الأدب قضية ذوق معنوي عائد إلى طباع كل أمة ومشاربها• ومما لا جدال فيه أن الأدب قابل للتجدد وأنه يتأثر بكل مؤثر جديد ، وأنه يتلوّن بلون الزمان والمكان ، وإن الأدب العربي نفسه دخل في أطوار مختلفة من الأزمنة والأمكنة التي وجد فيها ، ولكن هناك مسائل عائدة إلى ذوق الانسان العربي الكامل وإلى أسلوب اللغة العربية الأصلي • فهذه مسائل ليس فيها قديم وحديث بل فيها غث وسمين وبارد ومستكره ، والأمور الذوقية لا تعرّف بل من ذاق عرف •

إن كان العصر الحالي فَاق العصر الماضي في الطبيعيات والكيمياء وجر الأثقال ، فلا يستلزم ذلك أن يكون فاقهُ في الشعر والإبانة عن عواطف النفس • وإن العبقرية لنشيدةُ الأقوام بدون نظر إلى زمان أصحابها • أفيوجد في الانكليز اليوم مَنْ له مكانة « شكسبير » في الشعر ، أو في الألمان من له مكانة «غوته» ؟ وليس واحد منهما من أهل العصر الحالي • كذلك « الجاحظ وابن المقفع وبديع الزمان » أمثلة إنشاء للعرب ، « وأبو نواس وبشار وأبو تمام » أقيسة قريض لهم ، سواء أكان العرب الأولون أم المحدثون لا يضر بفصاحتهم أنهم عاشوا في الزمن السالف فالمسألة

مسألة خيال وشعور وملكة إبانة عنهما ، وهذا ليس في شيء من الكيمياء ولا من الميكانيكيات • فلا ينبغي خلط العلم مع الأدب ولا الصناعة وجر الأثقال مع الفصاحة • وإن إقحام لفظتي قديم وجديد هنا هو استغلال ألفاظ بغير حق كما يقول الأستاذ « الغمراوي » ، بل هو تضليل وقلب لحقائق الأشياء وأقيسة فاسدة ليست نتائجها عن مقدمات صحيحة •

مادة « الأدب » في الكلام العربي

وقد أشار الأستاذ « الغمراوي » في صحيفة ٢٢ من كتابه : إلى التعسّف الذي تعسفه « طه حسين » في بحث « الأدب » واشتقاق هذه الكلمة ، وكيف أنكر أن تكون عرفت في عصر الجاهلية أو زمن البعثة ، وأورد الشبهة على أن يكون الحديث النبوي « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » [1] صحيحاً بلفظه ، وكيف مضى في تعليلاته كلها على أنه « ليس ما يمنع » وأخذ يبني عليها أحكاماً طويلة عريضة • فقال الأستاذ « الغمراوي » : أنْ « ليس ما يمنع » هذه لا تفيد الجزم والقطع وإنما هي تقال في باب الاحتمال• ثم استلطفت جداً قوله :

---

(١) سنده ضعيف جداً ، قال ابن تيمية : لا يعرف له إسناد ثابت .

انظر : السخاوي ، المقاصد الحسنة صفحة ٣٠ .

« على أنه إذا كانت المسألة مسألة يجوز وليس ما يمنع ، فليس ما يمنع أن تكون النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة عن الجاهلية صحيحة ويجوز أن يكـون الحديث الشريف الذي أشار إليه قد صح عن النبي بلفظه » •

وأنا أقول إنه عدا حديث « أدبني ربي فأحسن تأديبي » توجد أحاديث كثيرة من زمن البعثة فيها هذا الحرف كقول علي كرم الله وجهه : « أما إخواننا بنو أمية فقادةٌ أدَبة » جمع آدِب وهو الذي يدعـو النـاس • وقول ابـن مسعـود : « إن هـذا القرآن مأدبـة الله في الأرض »[1] أي مدعـاة الله في الأرض • كـلا الحديثـين استشهـد بهمـا لسـان العرب • ولعلي إذا اتندح لي الوقت أجد أحاديث أخرى من ذلك العهد فيها هـذا الحرف • فإن قيل إنه لا يمكن الجزم بصحة تلك الأحاديث ولـو جاءت معنعنة عن ثقات الرواة ، قلنا هكذا لا يبقى تاريخ ولا يعود إمكان للبحث • وما أحلى قول الغمراوي :

« وعلى أن أسبقية هذه الكلمة على العصر الأموي أرجـح جـداً من التجويز والاحتمال ، فقد رُويت نصوص كثيرة عـن الجاهلية وفجر الإسلام ، كل منها يحوي مادة أدب في صورة من صورها ، وعلماء اللغة قد قالوا بصحة تلك النصـوص ونبـذ ما صححوه من غير ما قرينة ولا داع شطط وإسراف تضيع معـه الحقائق ولا ينمو به الأدب » •

---

(١) هذا الحديث يروى موقوفاً على ابن مسعود .

نسبة الانتحال إلى المحدثين والمفسرين والمتكلمين والنحاة :

وفي صفحة ١٠٠ يبسط الأستاذ «الغمراوي» مذهب الدكتور « طه حسين » في الشك : هذا الشك الذي هام الدكتور بحبه حتى انتهى إلى أن اتخذه قانوناً للترجيح والتجريح فيقول : إن ما ادعاه « طه حسين » لنفسه من أن الشعر الجاهلي موضوع جله إن لم يكن كله هو دعوى « مرغليوث » لا دعوى « طه حسين » في الحقيقة .

يقول : وقد سماها « طه حسين » نظرية وأعلنها في الكتاب أول مرة في صفحة ٦٤ وأعلن الفراغ من إثباتها في صفحة ١١٦ إذ يقول : « ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن تتبين الأسباب المختلفة » الخ .

قلت إني لا ألوم الدكتور « طه حسين » الذي قصاراه أن يسرق رأياً لمستشرق أوربي خالف فيه جمهور المستشرقين فضلاً عن علماء العرب [1] ، وأن ينتحل هذا الرأي لنفسه متبجحاً به ، كما ألوم نظارة المعارف المصرية التي تركت ناشئة الأمة التي آمنتها على أحداثها ألعوبة في أيدي مضللين يحسبون مجرد الشك يقيناً ويبنون عليه أقيسة ويلعبون بالحقائق التاريخية التي أقرّها جمهور

---

(١) راجع في مسألة سرقة طه حسين لرأي مرغليوث، الأستاذ محمود شاكر في كتابه « المتنبي » السفر الأول . وكم عانى الأستاذ شاكر من هذه السرقة التي جعلته يترك الجامعة وهو طالب فيها .

الشرقيين والغربيين وينقضونها بدون أدنى دليل يصح الاعتماد عليه ليقيموا مكانها أوهاماً في أوهام وأقاويل أشبه بأضغاث أحلام ويلقنونها نشء هذه الأمة على أنها حقائق علمية !! إن عملاً كهذا لو وقع في بلاد أوربية لسقطت من أجله الوازرة بأجمعها لا نظارة المعارف وحدها • ولكن الشرق أصبح في فوضى حقيقية من جهة التعليم ، لأنه زعم أنه يريد نبذ أسلوب التعليم القديم والعمل على الأسلوب الجديد فنسي القديم ولم يدرك الجديد ووقفت الأمة حيرى لا تعلم ممن تطلب الحساب •

وأعود إلى كلام الأستاذ « الغمراوي » فهو يقول : (إنه قبل النظر في نظرية « طه حسين » هذه وأدلتها ، وقبل المقارنة بين طريقة الدكتور في إثباتها وطريقة العلم في تمحيص النظريات ، لا بد من عمل مقارنة أخرى أهم من هذه المقارنة ومن تمحيص أمر آخر أهم من هذه النظرية ، وهذا الأمر هو موقف صاحب الكتاب تلقاء القديم ، وهذه المقارنة هي المقارنة بين موقفه هذا وما يبرره العلم الحديث • فاللغة العربية لو صدقت نظرية الدكتور لن تُرزأ بأكثر من تضييع نسب الشعر الجاهلي فيصبح مجهولاً نسبه بعد أن كان ينسب إلى شعراء معروفين ، أما الشعر ذاته فإن اللغة لن تفقده لأنه في رأي الدكتور : « إنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلّف القصّاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين ») •

أقول : هذا هو المحال بعينه • فإنه لا يأتي أحد في الدنيا عملاً بدون غاية يقصد إليها • وإلى الآن يتعذر علينا أن نفهم المقصد الذي لأجله تكلف « حماد » و « والأصمعي » خلق مئات ألوف من أبيات الشعر وعزوها إلى « الشنفري » و « الأعشى » و « امرىء القيس » وغيرهم ، وخلق الحوادث التي قيلت فيها وإقناع هذا الشعب العربي الكبير الذي يحصى بالملايين والذي صنعته الأخبار والروايات لا شغل له أهم منها بالتواطؤ معهم على ما خلقوه ! فما فهمنا مقصد الرواة في تسيير هذا الشعر المخلوق أولاً ، ولا السبب في تواطؤ هذه الأمة العظيمة ــ مع شهرتها بحرية الفكر ــ على هذا الكذب البارد ثانياً • ثم لم نفهم لماذا بعض « الأعراب » يختلق شعراً فينسبه إلى غيره ؟ أفليس الأجدر به أن ينسبه إلى نفسه ويفتخر به لا سيما أن الشعر كان من أعظم مفاخر العرب • ولقد سمعنا أن بعض الناس كانوا يدّعون شعر غيرهم من شدة بأو[1] هذه الأمة بالشعر ، وأنه كثيراً ما وجد لصوص أدب يشنون الغارة على أقوال الناس ويزعمون أنهم هم قالوها • فأما أن يقول أعرابي من البادية معلقة كقِفا نَبْكِ مثلاً، ثم إنه بدلاً من أن ينشدها على أنها لنفسه وينال بها الصيت البعيد يذهب ويقول : إنها « لامرىء القيس » • فهذا مما تقاصرت أفهامنا عن درك سره •• وأما النحاة الذين جرّدوا القواعد النحوية من الشعر والكلام الذي حفظوه من كلام الجاهلية •

---

(١) بأو : فخر ورفع نفسه . انظر القاموس مادة (بأي) .

فلما وجدوا أن كل ما كان فاعلاً يجيء مرفوعاً وكل ما كان مفعولاً يجيء منصوباً ، وأن الاسم بعد كان مرفوع ، وأنه بعد إنّ منصوب وهلم جرّا ، قرّروا هذه الأمور على أنها قواعد كلية وأن ماخالفها هو شاذ . ولم يكن لهم إرب خاص ولا غرض معين في أن يكون هذا مرفوعاً وذاك منصوباً وذلك مجروراً ، بل إنما قالوا به لأنه هكذا جاء عن العرب . ولو نطق العرب بالفاعل مجروراً لقال النحاة بجره إذ ليس لهم أدنى أي مغنم من رفعه . فلماذا ــ ياليت شعري ــ يذهبون ويرتكبون إثم الإفك ويخلقون شعراً من عند أنفسهم وينسبونه إلى زيد وعمرو من الجاهلية ليؤيدوا به أن الفاعل مرفوع وأن الباء حرف جر ، وأن الواو عاطفة وما أشبه ذلك . أفيا ترى لو كان الفاعل هو المنصوب والمفعول هو المرفوع وجاءت من شعر الجاهلية شواهد تؤيد ذلك ، أكان ذلك يرزأ هؤلاء النحاة في رزقهم أو دينهم أو حسبهم أو يثلم من شرفهم أو يغض من قدرهم ! ثم لو كان هناك نحوي واحد أو نحويان أو ثلاثة لهان الخطب وسهل التشدق بهذا المحال ولكنهم مئات وألوف ، وإذا نظرت إلى العالم العربي يومئذ فقل عشرات ألوف . أفكل هؤلاء تواطؤا على الكذب وأنشدوا أشعاراً يؤيدون بها قواعد نحوهم وعزوها إلى الجاهلية وهي ليست من الجاهلية . ثم إن هذه القواعد ليست في الحقيقة قواعد نحوهم ، بل هي قواعد كلام العرب والمناهج التي تمشى

عليها هذا الكلام منذ وجدت لغة « مضر » ، فما ضرَّهم لو كان كلام العرب على نحو آخر •فما أسهـل الفرض والتقديـر على « طه حسين » ، وما أهون الكذب والاختلاق في نظره ، وما أفرغ ضمائر الخلق في حسبانه • إن هي إلا كلمات يلوكها فمه ويجري بها قلمه وهو يظن تحققها هيناً وليس من ذلك بهيِّن ولا بداخل في العقل • إن الناس حدَّثوا عن رجل كان يجيب على كل سؤال يلقى عليه حتى لا يقر بالعجز وكان سيَّال القريحة فقلَّما بادَهَهُ أحد بسؤال إلا بادر بالجواب وأورد شواهد • وكان أصحابه قد عرفوا هذا الخلق فيه فأرادوا لأجل الفكاهة أن يسألوه عن لفظ لا معنى له ليروا كيف يجيب فاجتمعوا واقترحوا أن يقول كل منهم حرفاً ثم يجمعوا الحروف ويركبوا منها اللفظـة التي يريـدون السؤال عنها ففعلوا ذلك فإذا باللفظة التي تركبت من تلك الحروف هي « الخنفشار » وهي لفظة لا معنى لها في اللغة • فجاؤوا إلى شيخهم وسألوه عن « الخنفشار » فبادر بجوابهم إنه نبات ينبت بأطراف اليمن وإن من خصائصه أن يجذب الحليب• قال شاعرهم:

لقد جذبت محبتكم فؤادي كما جذب الحليبَ الخنفشارُ

ثم قال : ذكر « داود الأنطاكي » في تذكرته كذا وكذا وذكر فلان عن الخنفشار كذا وأراد أن يأتي بحديث نبوي • فعند ذلك ضحك القوم وقالوا له : كذبت على الشاعر وعلى «داودالأنطاكي» وعلى فلان وفلان فلا تكذب على رسول الله • وكيف كان أصل

هذه القصة فمما لا مرية فيه أن لفظة واحدة مخلوقة هي «الخنفشار» قد طبق خبرها الآفاق وصارت مثلاً مضروباً وصارت ذات معنى في ذاتها يدل على التلفيق ، وصارت قصة ذلك الشيخ الذي أحب أن يخلق شاهداً من قريحته أشهر قصة حفظها الأدباء من قرون ولم يبق أحد تقريباً لم يسمع بحديث الخنفشار • أفيرى « طه حسين » بعد ذلك أنه من السهل أن تكون شواهد اللغة كلها خنفشارية وأنه « ليس ما يمنع » أن تكون هذه الشواهد كلها أو جلها من وضع النحاة ! ونحن نجاوبه : يمنع ذلك العقل السليم والمنطق والعادة والوجدان الصحيح والكتب الموجودة والأدب المأثور والروايات المصححة والتواتر ، ويمنع ذلك ما لو فسد لم يصح علم في الدنيا•

وأغرب من هذا قوله إن الشعر الجاهلي هو « من اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين » !!! وأول دليل على فساد هذا الزعم أن هؤلاء المفسرين والمحدثين والمتكلمين لم يكونوا بشعراء • وإن وجد منهم من قرض الشعر فيكون نادراً ، والنادر لا حكم له • ثم إن كانوا قالوا شيئاً من الشعر فقد كان أسلوبهم فيه أسلوب علماء لا يخفى على الناقد البصير وهذا بعيد عن مذاهب الشعراء• وأذكر هنا النكتة التي رواها ابن خلدون في مقدمته عن لسان الدين ابن الخطيب حين أنشده منشد :

لم أدر حين وقفتُ بالاطلال ... ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال له : هذا شعر فقيه لقوله « ما الفرق » فإن الشعراء

لا يعرفون هذا الأسلوب • وبالاختصار إن المحدثين والمفسرين والمتكلمين إن وجد منهم من قال الشعر فإنما يكون على أساليب العلماء المعهودة لا على أساليب الشعراء لا سيما شعراء الجاهلية • هذه قضية لا يقدر أن يسفسط فيها لا «طه حسين» ولا «مرغليوث» ولا غيرهما إلا إذا جاز تعاطي المحال وصار يؤخذ به في الجدل ، فعند ذلك كل قول جائز •••

وليقل لنا « طه حسين » : مَنْ مِن أولئك المحدّثين كان يتعمد تزوير الشعر على ألسن شعراء الجاهلية ؟ أفكان « البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل والشافعي ومالك والمزني والدارقطني وابن تيمية » ! وهذه الطبقات بمكانهم من الصدق والورع والتحري إلى الدرجة التي لم تعهد في أمة من الأمم هم الذين يضعون تلك الأشعار الجاهلية وهاتيك القصائد على ما فيها من غزل وتشبيب وطروق نساء في الليالي الخ ، وهم الذين كان الواحد منهم إذا أراد أن يتلو حديثاً قام فصلى ركعتين وتوسل إلى الله تعالى أن يلهمه الصواب حتى لا يأتي بحرف زائد أو ناقص • ثم ماذا كان مقصدهم من وضع هذا الشعر ؟ أفكان درساً في العفة أن يخلقوا مثل :

فمثلك حبلى قد طرقتُ ومُرْضعٍ
فألهيتها عن ذي تمائم مُحْوِلِ

اذا ما بكى مـــن خلفها انصرفتْ لـــه
بشـــق وتحتي شقهـــا لـــم يُحَوّلِ (١)

أم كان درساً في التوحيد أن يضعوا للناس مثل :

حيـــاة ثـــم مـــوت ثـــم حشـــر حديث خرافـــة يا أم عمرو (٢)

أم كان تزهيداً في شرب الخمر وضعهم :

الا هبي بصحنـــــك فاصبحينا ولا تبقي خمـــور الاندرينـــا (٣)

ووضعهم الآخر :

وإذا سكـــرت فإنني مستهلـــك مالي وعرضي وافر لم يكلم (٤)

---

(١) من معلقة امرىء القيس .

(٢) جاء في حاشية (بلوغ الأرب في أحوال العرب) ٢/١٩٨ للآلوسي:« خرافة رجل من بني عذرة استهوته الجن فلمّا خلّت عنه رجع إلى قومه وجعل يحدثهم بالأعاجيب التي رآها فكذبوه ، فكانت العرب إذا سمعت حديثاً لا أصل له قالت : حديث خرافة ، ونسب بعضهم هذا البيت لابن الزِّبْعَري .

وشبيه بهذا ما قاله « شداد بن أوس بن عبد شمس » يرثي كفار قريش :

ومـــاذا بالقـــليب قليب بـــدر من القينـــات والشَرْب الكرام
يحدثنـــا الرســـول بأن سنحيا وكيف حيـــاة أصـــداء وهـــام

(٣) مطلع معلقة عمرو بن كلثوم .

(٤) من معلقة عنترة العبسي .

أم كان غرامهم أن يشيدوا دين النصرانية حينما نظموا على لسان النابغة مديح بني غسان :

يحيون بالريحان يوم السباسب(١)

أي يوم الشعانين . وحين قالوا عنه :

محلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب(٢)

إلى غير ذلك مما لو استقصي لم تسعه الأوراق ولم تضمه الأجلاد .

ومن هم يا « طه حسين » أولئك المفسرون الذين زوّروا هذه القصائد على الجاهلية ؟ إن المفسرين عددهم محصور تقريباً وأشهرهم « الطبري » و « الرازي » و « الزمخشري » و « البيضاوي » و « ابن برجان »(٣) ، ومن عدا هؤلاء فلا يبلغون مكانتهم في الشهرة . أفأحد في الدنيا يقول إن ابن جرير الطبري كان عنده من الوقت مع تآليفه التي كانت تفني الأعمار دون قراءتها

---

(١) هذا هو الشطر الثاني من قصيدة يمدح فيها « عمرو بن الحارث الغساني » . ديوان النابغة ص ٦٢ ، صنعة ابن السكيت .

(٢) ديوان النابغة ص ٥٦ ، وفيه : (مخافتهم) بدل (محلتهم) .

(٣) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال ، المعروف بابن بَرّجان اللخمي الإشبيلي ، ومن تآليفه : « تفسير القرآن » ، و « شرح الأسماء الحسنى » . وله خبر مع « ابن تاشفين » سلطان مراكش . توفي ٥٣٦ هـ .

وحلقات دروسه المتصلة التي كان يقصدها الناس من الآفاق بحيث أنه كان يصنع القصائد على ألسن الجاهلية ! وهل القاضي « البيضاوي » هو الذي قعد يزوّر للناس أشعاراً على لسان النابغة الجعدي وأعشى بأهله ؟

وما الذي حداهم إلى ذلك ؟ أفكان هذا الشعر الذي زوّروه في معنى آي الكتاب الذي فسروه !

ثم وصلت أيضاً يا « طه حسين » إلى المتكلمين وأدخلتهم في مؤامرة التزوير هذه فائْتِنا ولو بشاهد واحد على صدق دعواك، وقل لنا أي بيت قيل إنه نظمه : « أبو الحسن الأشعري أو أبو منصور الماتريدي أو إمام الحرمين أو شمس الإسلام الجويني أو الإمام الغزالي أو أبو بكر الباقلاني أو النسفي » أو غيرهم من المتكلمين(١) عن لسان أحد من شعراء الجاهلية أو اشتبه في أنه له

---

(١) قال (التهانوي) في كشاف اصطلاحات الفنون ١/٣٠ : « علم الكلام : علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه ، ويسمونه بأصول الدين أو علم النظر والاستدلال » .

والحقيقة أن أصول الدين هي الكتاب والسنة ، ولكن علم الكلام اضطرهم إلى استعمال مصطلحات المنطق والفلسفة فتورّطوا بالتزام أشياء غير صحيحة . إن القرآن لم يستعمل هذه الطرق في إثبات المعادِ أو غيره من العقائد .

انظر في موضوع : الفرق بين طريقة القرآن ، وطريقة أهل الكلام ـ مجموع الفتاوى لابن تيمية ، جزء ٣ ، ص ٣٠٣ .

دون الجاهلي الذي نسب إليه • وقل لنا ما غاية ذلك الإمام المتكلم من تلك الكذبة واشرح لنا عما في هذا الكلام المختلق من زيادة الاستدلال على وجود الله أو على صحـة الإسلام ؟ إن هؤلاء المتكلمين هم مناطقة قضوا أعمارهم في التعليل والقياس فلا يعقل أنهم يأتون عملاً أو يقولون قولاً بلا سبب •

سهل عليك وعلى أمثالك إلقاء الكلام على عواهنه وأن تقول: « إن القدماء لم ينسوا في البحث قوميتهم ودينهم وما يتصل بهما فاضطروا إلى المحاباة وإرضاء العواطف فغلّوا عقولهم بما يلائم هذه القومية وهذا الدين » •

ولكن ليس بسهل عليك ولا على أمثالك أن تثبتـوا كيف جرّوا في هذه المحاباة وفي إرضاء هذه العواطف ، ولا تقدرون أن تأتوا بشاهد واحد على هذا وقصارى ما تأتـون به « خيـال » والخيال يبقى خيالاً ، و « افتراض » والافتراض لا يكون حقيقة مجزوماً بها ، لا سيما إذا كان بعيداً منبوذاً • فالقدماء أحبوا دينهم وقوميتهم ، وما من أمة من الأمم إلا وقد أحبت دينها وقوميتها • والإفرنج المعاصرون بالإجمال محبون لدينهم وقوميتهم ، وإن وجد منهم من هو غير متمسك بدينه فهو تحت تأثير نشأته الدينية والقومية ، وكل من هذه الفئات تدافع عن دينها أو عن قوميتها وتجتهد أن تثبت كونها أهدى سبيلاً من غيرها • ولكن الكذب والاختراع لأجل إثبات الحق هما بئس العمل لإثباته باتفـاق الأولين والآخرين • وإن إخفاء الحقائق لا سيما في الأمور التي

تناولتها أمم بحذافيرها وشعوب بقضِّها وقضيضها ليس من السهولة في المكان الذي يقع في خيالك وخيال « مرغليوث » •
وإن الحب الذي يشعر به الانسان لدينه أو لقوميته سواء أفي قديم أو في حديث لا يحمله على ترك وجدانه وتصيير نفسه كذّاباً وضّاعاً مفترياً مختلقاً وهو يعلم أن كل كذب فمصيره إلى الفضيحة وأنه مع ذلك من عقيدته في كفاية تغنيه عن ارتكاب السرقة •

على أننا لو سلمنا جدلاً بأن القدماء لغرامهم بدينهم أو قوميتهم أرادوا أن يعززوهما بشواهد جديدة ، فلم نفهم حتى هذه الساعة ما الذي في شعر الجاهلية مما يعزز الإسلام ويزيد في إيضاح براهينه حتى يقوم المحدثون والمفسرون والمتكلمون بارتكاب كبيرة التزوير ويقولوا عن ألسن الجاهليين شعراً مخلوقاً لا حاجة بهم إليه ، فيكونوا كمن شهد الزور عفواً بلا طلب أو سرق على غير حاجة • وهذا أمر إن لم يردّه الدين والخلق ردّه المنطق والعقل •

محاولة إلغاء جهود ثلاثة عشر قرناً ببضعة أسطر

ومن جليل الملاحظات التي أبداها الأستاذ « الغمراوي » في كتابه ما يأتي :

(لكن مذهب الاستاذ فيما يسميه بالقديم أي فيما أجمع عليه أهل العلم باللغة إلى ظهور الكتاب يسلب اللغة أدبها كله ويسلب أهل اللغة كل تاريخ لغتهم وشيئاً كثيراً جداً من تاريخهم ،

إنه يذهب إلى « أن نضع علم المتقدمين كله موضع البحث » ، ص ٦٠ . وكأن هذا لم يكفه فعقَّب عليه بقوله : « لقد أُنسيت فلست أريد أن أقول البحث وإنما أريد أن أقول الشك » ومانضع موضع الشك فلن نبني عليه طبعاً ولن نستشهد أو ننتفع به بحال. فهو مبدأ يطوي ماضي اللغة كلها طياً ، ويضرب على علم المتقدمين كله طلسماً من الشك يحول دون انتفاع الناس به . ولا بد للناس بعد ذلك من أن يصبروا على غير لغة أو أدب أو تاريخ حتى يقوم المذهب الجديد مذهب « طه حسن » فيكشف لهم أدباً وتاريخاً جديدين ويبتني للغة نظاماً جديداً يحل محل هذه الفوضى الجديدة التي يريدون إدخالها بهذا المبدأ على اللغة والتي إذا أباها الناس كانوا في رأي الدكتور لا يعرفون للعلم حقه .. الخ) إلى أن يقول الأستاذ الغمراوي :

« فهذا المبدأ الذي وضعه صاحب الكتاب في مقدمة كتابه تمهيداً لبحثه هو لا شك أهم وأشد خطراً من نظرية الكتاب بل هي بجانبه لا تبدو إلا ضئيلة تافهة .

ومع ذلك لم يره صاحب الكتاب جديراً إلا ببعض صفحات يخصها له من كتابه كأن العلم الذي ذكر هذا المبدأ باسمه لا يحتم على الأستاذ إثبات صحته أو على الأقل تبريره قبل الأخذ به ، أو كأن تبرير مبدأ كهذا يلغي جهود ثلاثة عشر قرناً يمكن أن يقوم به كاتب في بضعة أسطر أو صفحات من كتاب . إن العلم الذي يكتب الدكتور باسمه لا يمكن أن يكون بعض مبادئه معطلاً لبعض .

فهو لا يمكن أن يقرأ مبدأ يسمح لشخص ما ولو كان أستاذاً في جامعة أن يهدم أو يعطل في دقائق ما بنته الأجيال في طوال القرون»

إلى أن يقول الاستاذ الغمراوي ولله دره :

« العلم كما يتحرز كل التحرز في البناء يتحرز كل التحرز في الهدم ، وكما يبني يحافظ على ما يبني ، وكما يصون جهود الحاضر والمقبل من الأجيال أن تضيع في أبحـاث لا طائل تحتها ، يصون جهود الماضي منها أن تضيع بشك جزاف لا مبرر له ... الخ » .

لقد جمع الأستاذ الغمراوي فأوعى في هذه الجمل القليلة التي هي مثال من أمثلة البلاغة . وأضيف إلى ذلك :

ان الشك لا يكون علماً ، لأن الشك أشبه بالهدم ، والعلم موجود فلا يكون الشيء معدوماً وموجوداً في وقت واحد .

وأقول أيضاً : إن الأوربيين الذين اخترنا النسج على منوالهم في العلم والثقافة ، لم يهدموا ماضيهم ولا نسفوا ما رفعته القرون الخالية . وهذه الثقافة اليونانية واللاتينية لا تزال لعقولهم نبراساً ولآدابهم أساساً . والتجديد في الأدب وفي كل شيء ليس معناه هدم كل بناء قديم لأنه قديم، بل هو هدم كل ما تحقق أنه مختل الأساس لأنه مختل ولأن الإقامة به خطر، فأما إذا كان الأساس متيناً والبناء متراصاً متلائماً والإقامة بالبناء أو بجانبه لا تدعو إلى الحذر ولا تؤذن بالخطر فيكون تعمد هدمه ضرباً من الجنون . أفخطر ، ببال أحد أن يهدم الأهرام لأن الأهرام بنية قديمة زائدة العتـق وأن يتبدّل بها بنيّة جديدة على الطرز الأحدث . كلا ! بل الناس يحرصون على الأهرام ويعدونها من مفاخر القرون السوالـف

ويجعلونها عبرة وذكرى ويتخذون من شكلها مثالاً هندسياً منسوباً إليها • ثم إن هذا الجديد هو حلقة من سلسلة ، وسيأتي يوم يعود فيه قديماً ويأتي جديد بدلاً منه :

إن هذا القديم كان جديداً وسيبقى هذا الجديد قديماً

والأدب بنوع خاص لكون مركزه الذوق يختلف عن العلوم الطبيعية ولا يتهيأ للاختراعات الجديدة كما تتهيأ هذه العلوم•ولقد شاهدنا أشد الناس استمساكاً بالطرق العلمية المادية وأعضّهم بالنواجذ على المحدثات العصرية إذا جئت به إلى الأدب وأسلوب القول حافظ أشد المحافظة على الديباجة المدرسية وأودع الآراء العلمية الحديثة قوالب ليست في شيء من الاختراعات الجديدة • وما سمعنا بكاتب نزع عن الأسلوب المعروف في الكتابة إلى أسلوب جديد يتوخى فيه لغةً جديدة واصطلاحات غير معروفة وساغ ذلك في أذواق الناس • وكثيراً ما سمعنا عن « طه حسين » وبعض من يسمون أنفسهم مجدّدين أنهم يريدون أن يجددوا في الأدب وما رأيناهم أتوا بشيء جديد• فهم بين أمرين : إما أن يقتدوا بالأولين في أسلوب الإنشاء ويخوضوا في حديث التجدّد لكن بلهجة القدماء أنفسهم فيكونون خالفوا ما يدعون إليه ، وإما أن يحاولوا منزعاً جديداً في الكتابة فتراهم يخرجون عن أساليب اللغة ولا يعود كلامهم مفهوماً ويشعر كل من قرأه أنهم يحاولون فلسفة باردة من أبعد الأشياء عن الذوق السليم • هذا من الوجهة العملية، فأما من الوجهة النظرية فليقل لنا «طه حسين» : ما الأدب الذي صحّ

عنده بعد أن وضع الأدب القديم كله موضع الشك ؟ فإن الناس لا بد لهم من أدب ومن تاريخ أدب ومن تاريخ سياسة ولا يمكنهم أن يتركوا ثمرات العقول والقرائح في آماد متطاولة وحقب لا يكاد يحفظ بدؤها لأجل أن يقول لهم طه حسين: « ليس ما يمنع أن يكون كذا » أو « إن الشك فيه لذة » أو « إن القدماء أحبوا الإسلام كثيراً فقصروا كل شيء عليه وكذبوا هذا الكذب كله لأجل تمجيد الإسلام » أو ما هو بمعناه مما يدل على سهولة الكذب الى الحد الاقصى عند طه حسين .

ولقد جاوبه الاستاذ الغمراوي قائلا له : ولو أن الدكتور اتبع سنة العلم في بحثه لعلم ان قديم اللغة العربية أكبر من أن يقع دفعة واحدة تحت شك باحث علمي ولقصر شكه على ذلك الجزء من القديم الذي يتصل بموضوع بحثه . وليته إذ ترك سبيلهم في هذا تبع سنتهم في نقد القديم فبين حقاً وجوه النقد فيه ومواطن الضعف منه حتى يكون هو على بصيرة من بحثه وحتى لا يضيع زمنه وزمن الناس في بحث أو أبحاث لعل الحاجة العلمية إليها غير قائمة . ولكنه لم يفعل هذا أيضاً كأنما قد أحس بأن الأخذ بسنة العلم هذه يطيل عليه الطريق إلى ما يريد ويجعل كل موقف شك يقفه واقعة بينه وبين مخالفيه فأراد أن يجمع الوقائع كلها في واقعة واحدة حاسمة : يشك هو في القديم كله جملة ويدافع المدافعون عن القديم جملة ونسي أنه سواء انتصر عليهم في نفوس الشباب أو لم ينتصر فلن

تكون الواقعة واقعة علمية من جانبه ولن يقر العلم انتصاره لو انتصر لأن العلم يريد أن يكون التعارك والتدافع حول كل موقف وسيلة إلى تمحيصه وتبيين الحق فيه •ولو في غير هذه الأمة ظهر هذا الكتاب لكان فيما فيه من دعوة إلى الشك في الماضي كلــه ما يكفي وحده لإماتة الكتاب وليداً » •

ثم أتى « الغمراوي » على ذكـــر مبررات الشك في زعـــم « طه حسين » ورد عليها واحداً واحداً بطريقة علمية تترك لقارىء الكتاب التأمل في أحكامها وسدادها ولكنني أقف عند قول طــه حسين :

« إن الشك قد يؤدي إلى ما يقرب من الثورة الأدبية » •

وجواب الغمراوي له بقوله : « إن العلم ليس من همّه إحـداث الثورات ، ولا يرمي في أبحاثه إلى استحداث الغرائب » •

وما نراه من غرائب العلم إنما جاء عفواً لم يقصد العلم أن يدهش به الناس ، إنما طالب العلم الحق يرحب به أينما وجده : إن وجده بين القديم استمسك به ، وإن كشف به من جديد فرح به ، دهش له الناس أو لم يدهشوا • لذلك يحافظ العلم على القديم من الحق محافظته على الجديد منه • وهذا الكلام يبدو بدهيــاً لا حاجة إلى توكيده لولا أن الطائفة التي تتلقب بالمجددة في مصر والدكتور طه حسين من قادتها تكتب وتتكلم على ما يظهر كأن القدم علامة البطلان والجدة علامة الثبوت » إلى أن يقول : « إن العلم ليس هو بالذي إذا ملّ نبذ ولم يحقق وإذا استطرف قبل ولم يحقق •بل مذهب العلم في الواقع هو المحافظة أو قل ان العلم هو

رأس المحافظين المتعلقين لا ينبذ قديماً إلا بحجة، ولا يقبل جديداً إلا ببرهان • وليس معنى كون العلم لا ينبذ قديماً إلا بحجة أنه يرى أن كل قديم حق ، لو كان يرى ذلك ما نبذه قط لا بحجة ولا بغير حجة بل لرأي — جرياً على قاعدة استحالة التناقض بين الحقائق — أن كل حجة تؤدي إلى نبذه حجة باطلة لكن العلم ينزل المعلومات منازلها في القديم كما ينزلها منازلها في الحديث » •

إن هذا الفصل من كتاب الغمراوي هو فصل الخطاب في قضية القديم والحديث وفي موقف الناس بينهما، يكاد الناقد البصير إذا قرأه أن لا يجد في عباراته أدنى فرجة يقدر أن يزيد بها كلمة أو ينقص كلمة فألفاظه مفصلة على قدر المعاني ومعانيه مفصلة على قدر الحقائق الثابتة• ولقد أتم الأستاذ « الغمراوي » مبحثه في العلم وشؤونه وطريقة التحقيق فيه ودرجات الثبوت والراجح والمرجوح والقطعي والظني إلى غير ذلك مما يجدر بالناشئة أن يحفظوه عن ظهر قلوبهم وأن يتدبروا معانيه ويتخذوه دستوراً للعمل ومناراً للسرى في ظلام هذه الشكوك المعترضة • وأنا أزيد على ذلك : إن العلم ليس فيه قديم وجديد وإنه كما قال المتكلمون عن العلم الإلهي يستوي أمامه القديم والجديد ولا يخصه منهما إلا الثابت فتخصيص العلم بزمان أو بمكان وقصره على شرق أو غرب أو مقدّم أو مؤخر ضلال في أودية ليست من العلم في شيء ووصم العلم بما هو براء منه• وإن هذه الفئة التي تسمي أنفسها بالمجددة في مصر أو في غير مصر• إنما تريد لتستثمر نزغات الشباب وبدوات

الغرور الذي ينشأ عن قلة التجربة لتحمل الناس على نبـذ كل قديم حقاً أو باطلاً . وليس هذا العارض منحصراً في مصر أو في الشرق ، بل الطلبة في الغرب أيضاً من دأبهم أن يملوا كل قديم وينشدوا كل جديـد ويعترضوا على كل أمر أجمـع عليه من تقدمهم ، وترى الناس هنالك معهم في عناء ما دامت دماؤهم تغلي في مراجل الشباب ، فإذا قطعوا العقد الثالث من حياتهم رأيتهم رجعوا عما كانوا عليه وعدّوه من غرور الشباب ونظروا في الأمور من حيث جوهرها لا من حيث تاريخ مولدها وعلموا أن ما كانوا عليه من الشطط إنما هو عمل اقتضاه تركيبهم الفسيولوجي الذي هو في فورة دم الشباب غيره في ركون جأش الكهولة .

ثم إن الأستاذ « الغمراوي » تكلم على مذهب « ديكارت » الذي هو سلاح « طه حسين » بزعمه والمحور الذي أدار عليه مباحثه واستخلص منه أن « ديكارت » لم يبدأ بالشك لأجـل أن يستمر في الشك ، بل ابتـدأ بالشك لينتهي إلى اليقين ، وأنه صار من قواعد فلسفة ديكارت أن ما وجـد في الذهن واضحاً جلياً فهو يجب أن يسلم به تسليماً .

وأنا أقول إن ديكارت إنما بدأ بالتشكيك ليزداد يقيناً ، أشبه بالرجل الذي يريد أن يطمر طمرة بعيدة فيرجع إلى الوراء استجماعاً لقوته وتجده يستجد في هذه الرجعة إلى الوراء من العزم ما لم يكن له لو قفز من مكانه . وما أحد من الفلاسفة قال إن ديكارت ابتدأ بالشك حتى ينتهي بالنفي . بل الأمر بالعكس فقاعدته كانت أشبه

بالشهادة [1] أوّلها النفي ونهايتها الإثبات الذي لا شك فيه من ناحية من نواحيه ، فقد جعل ديكارت قاعدته أن يشك بادىء ذي بدء ، حتى إذا تأمل كيف أمكنه أن يشك انتهى إلى نتيجة أن المتشكك موجود ثم انتهى من إثبات وجود الانسان إلى وجود البارىء تعالى . هذا هو مذهب ديكارت . وإني أرى أجحد متفلسف لمذهب ديكارت هو طه حسين الذي ما زاد على أن ألقى شبهات وأورد خوانس ثم لم ينته منها إلا إلى حيرة عمياء ليست في شيء من مذهب ديكارت[2] .وأقول أيضاً لو سلمنا جدلاً بأن مذهب « طه حسين » هو مطابق لمذهب « ديكارت » فمن يقول إن ديكارت كان معصوماً من الخطأ وإنه إن قال ديكارت فقد قضي الأمر وجف القلم ، فلا ديكارت ولا فيلسوف آخر تلقى الحكماء جميع كلامه بالتسليم .

وقد زعم ديكارت أن حركات الحياة ناشئة عن أرواح حيوانية يقذف بها القلب إلى الدماغ ويقذف بها الدماغ إلى الأعصاب ، واليوم نجد الناس يهزؤون بهذه النظرية . ومن أهم ما نبه إليه الأستاذ « الغمراوي » من أدوات التضليل التي استعملها الدكتور « طه حسين » هو قول الدكتور عن طريقة « رينيه ديكارت » إنها تجرد الإنسان من كل ما كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل . قال : على أن القاعدة الديكارتية ليست كذلك ،

---

(١) يقصد : شهادة لا إله إلا الله .

(٢) انظر صفحة ١٩ من « المبنى » لشاكر .

بل هي أن لا نقول عن شيء إنه حق إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك . وشتان بين هذا المعنى وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قيل في الموضوع من قبل إذ من الجائز أن يكون ما قيل قد قام البرهان على صحته . وأنا أقول إن قول ديكارت : أشك في وجودي ، إذاً أنا موجود . هي بنفسها تدل على عدم التجرد من كل ما كان يعلمه من قبل . فقد كان مقرراً عنده من قبل أن التشكيك هو تفكير وأن التفكير دليل على وجود المفكر . فانتهى من هنا إلى إثبات المخلوق ثم الخالق . وعليه يكون ديكارت عمل بقاعدة هي من البدهيات عنده من قبل ولا يكون تجرد التجرد الذي يصفه لنا الدكتور .

ومالي وللتعليق على كتاب الأستاذ « الغمراوي » واستقصاء ما فيه وهو لم يترك في القوس منزع ظفر ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الموضوع إلا وفّاها حقّها من البحث بطريقة علمية اعتادها من مباحثه في الكيمياء وعلم الطبيعة وتمّ فيها حظه بملكة عربية متناهية في البلاغة فجاء هذا الكتاب نسيج وحده في الجمع بين العلم والأدب ، وآية من الآيات الباهرة في إبراز التحقيقات العلمية بهذا القالب النفيس من لغة العرب ، وأن من أفضل ما في هذا البحث أن صاحبه أستاذ متخصص في علوم الطبيعة متمرس بالتجارب التي لا تكذب صاحبها مما يزيده صحة حكم وسداد نظر ويؤيده في التغلب على المكابرين وإلقامهم الحجر .

لوزان ٢٥ كانون الأول سنة ١٩٢٨ **شكيب أرسلان**

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمــة	٣
مدخــل	٧
تقليد الأوربيين فيما ليس من علومهم	١٤
غرائب بعض الأوربيين	١٩
الشعر الجاهلي والإسلام	٣١
لا مصلحة للإسلام في تعفية آثار ما سبقه	٣٢
القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة وأخبارها	٣٣
ما بأيدينا من الشعر الجاهلي خليق بعصره	٣٥
الحكم العربي لا يعرف طريقة كمّ الأفواه وتقييد الأقلام	٤١
هل اشترك المؤرخون من سائر الملل في مؤامرة السكوت ؟	٤٧
من كانت تلك العصابة التي تولت كبر هذا التزوير ؟	٤٩
متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين ؟	٥٤
الحقائق لا تكون تحت رحمة الشكوك	٥٦
تدريس الآراء الفطيرة باسم التجديد	٦٠
بحران الشرق الاجتماعي	٦٢
مادة « الأدب » في الكلام العربي	٧١
نسبة الانتحال إلى المحدثين والمفسرين والمتكلمين والنحاة	٧٣
محاولة إلغاء جهود ثلاثة عشر قرناً ببضعة أسطر	٨٤

من منشوراتنـــا

أولاً ـ أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع :

تأليف : الأستاذ جودت سعيد

١ ـ مذهب ابن آدم الأول(مشكلةالعنف في العمل الاسلامي) .

٢ ـ الانسان حين يكون كلاً ، وحين يكون عدلاً .

٣ ـ حتى يغيروا ما بأنفسهم .

٤ ـ فقدان التوازن الاجتماعي .

٥ ـ العمل قدرة وإرادة .

ثانياً ـ نظرات في كتاب الله :

١ ـ قبس من الإعجاز **للأستاذ : هشام الحمصي**

٢ ـ أضواء على سورة يس **للأخت : حنان لحام**

ثالثاً ـ من التراث الإسلامي :

١ ـ رسالة لطيفة في أحاديث متفرقة ضعيفة

تأليف : ابن عبد الهادي ـ تحقيق محمد عيد العباسي

٢ ـ إشارات لطيفة لابن تيمية

جمع وتقديم : محمد العبدة

رابعـاً ـ من أخبار الصحابيات :

تأليف : حنان لحام

١ ـ سمية بنت خياط (الشهيدة الأولى)

٢ ـ أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة)

خامساً ـ للبراعـم :

تأليف : الأستاذ موفق سليمة

١ ـ روضة البراعم المصورة (١ ـ ٤)

٢ ـ مسرحيات مؤمنة (١ ـ ٣)

سادساً ـ للجميـع :

١ ـ الإدمان أقوى دافع اصطناعي

تأليف : دكتور نل بيجيرو

ترجمة : دكتور فاروق سيد عبد السلام

٢ ـ ميـلاد جديـد **تأليف : حنان لحام**

٣ ـ أناشيد فتية الحق **تأليف : نخبة من شعراء الدعوة**

٤ ـ الشعر الجاهلي : أمنحول أم صحيح النسبة

تأليف : الأمير شكيب أرسلان

هذا الكتاب

منذ أصيب العالم الإسلامي بصدمة التفوق الغربي ، وهو منقسم إلى من يريد الاحتفاظ بالأصالة وأخذ المفيد من كل مكان ، وبين من أحدث هذا الأمر شللاً في تفكيره فكان عنده أنه لا بد من أخذ حضارة الآخرين بعجرها وبجرها .

وصفحات هذا الكتاب بقلم « الأمير شكيب أرسلان » : هي مقدمة لكتاب (النقد التحليلي) الذي يردُّ فيه مؤلفه « محمد أحمد الغمراوي » على آراء « طه حسين » التي ضمَّنها كتابه (في الشعر الجاهلي) . ويوضح الكتاب أن القضية لم تهدف إلى التشكيك في الشعر الجاهلي فحسب ، بل كانت ترمي إلى نقض إجماعات أخرى لبقية العلوم .

دار الثقافة للجميع
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٥٠ ق.ل